رواية

زيد الشهيد

الليلُ في نقائه

أمل الجديدة
طباعة - نشر - توزيع

اللَيلُ في نَقائِهِ

الكتاب: الليلُ في نَقائِهِ
المؤلف: زيد الشهيد
الطبعة الاولى: ٢٠١٩
تصميم الغلاف والإخراج الفني: دار أمل الجديدة
ISBN: 978-9933-628-33-8
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ١٠ لسنة ٢٠١٩

سورية -دمشق
جوال ٠٠٩٦٣٩٣٢٤٧٢٠٩٦ -٠٠٩٦٣٩٣٢٠٠٢١٢٦ -
هاتف: ٠٠٩٦٣١١٢٧٢٤٢٩٢
E-mail:ammarkordia@yahoo.com

حقوق الطبع محفوظة: لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت (الكترونية) أو (ميكانيكية) أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من المؤلف أو الناشر.

All rights reserved, Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, Electronics, mechanical photocopying, recording of otherwise, without prior permission in writing of the publisher

زيد الشهيد

الليلُ في نَقائِهِ

رواية

الليل في روايات زيد الشهيد

د. صالح الرزوق

يقدم لنا زيد الشهيد في ثلاثيته (الليل في نعمائه)، و(الليل في بهائه)، و(الليل في علیائه)* ثلاث دوائر متداخلة، كلها تعود بذاكرتنا الأدبية إلى الماضي. وإذا كان يصعب تلخيص أحداثِ ثلاث رواياتٍ متقاطعة ومنفصلة، يمكن الإشارة إلى همِّها العام. وهو عاطفة الحب العفيف، أو الحب المقموع. ففي كل رواية قصة غرام ضمن حِبكة بسيطة مع أقل عدد ممكن من الشخصيات، جرياً على تقاليد فرانسواز ساغان في معظم أعمالها الصغيرة ومنها (سحابات رائعة) و(صباح الخير أيها الحزن) و(الوداع مجددا) وغيرها.... ولكن الشهيد يعارض الحب المدنس. ويكتفي بمتابعة مشاكلنا الاجتماعية، التي تطال جيل الأبناء، من المثلث الأوديبي. فالنساء هنا عذراوات ومحبات بالسر، والرجال عشّاق متحفظون لا يذيعون تفاصيل حياتهم العاطفية، أو أنَّهم غافلون عن مبدأ الرغبة. بمعنى أنَّهم ضحايا لمشكلةِ التصعيد الفرويدي، ويستهلكون حياتَهم بالانكفاء على الذات والتفكير بمشاكل روتينية ساذجة، منها الملبس والمأكل، ونادراً ما يفكّرون بالمأوى. ويهتم

أبطال الشهيد كثيراً بالمنغصات (العوائق بلغة الناقد الروسي بروب) ومعنى الاستسلام للقدر الغاشم الذي تقول عنه شهرزاد هادم اللذات ومفرق الجماعات. والواقع إنّه بين هذه الثلاثية وشهرزاد أكثر من وشيجة وصلة قرابة. فحكاياتها تتطوَّر في الليل، وهو التوقيت الذي اختاره زيد الشهيد لثلاثيته. وهذا واضح من العنوان. ولكن لا تتوقَّف الصلةُ عند العناوين، وإنَّما هناك أيضاً علاقة في المنطق أو البنية. كانت شهرزاد تسلِّي الملكَ الجائر بمجموعة من القصص المتوالية، وتسمح لكل قصة أنْ تتفرَّع فجأةً دون تمهيد، وأحياناً تحتلُّ القصةُ الفرعيةُ مساحةً أكبر من الأساسية. وقد اتَّبعَ زيد الشهيد هذا الأسلوب دون تردد (مثلا حكاية حمامة مَعشوقةُ حزين) ولكن لغاية مختلفة.

فشهرزاد تهدفُ لجذب انتباه الملك بالتشويق والغرائب؛ في حين استعمل الشهيد هذه الحيلة للتعريف بماضي الشخصيات (فحكاية حمامة تبدأ قبل الأحداث بخمسة عشر عاماً – ص ٢٦). وأعتقد أنَّ التذكّر واحدة من أهم وسائط السرد في أعمال الشهيد. ويقول بهذا المعنى علناً: "الذكرى بقدر ما هي لذيذة حين تتسلل من دهاليز الذاكرة وتدخل بستانَ الوعي فإنَّها بلا شك تثيرُ الشجونَ وتقضُّ مضاجعَ الهجوع". ص ٣٣. وقد أدّى ذلك لأن تنقسم رواياته على نفسِها. فقد كانت الحكايات الفرعية بضمير المتكلم وبصيغةِ حوارٍ، بينما حكاياتُه الأساسية بضميرِ الغائب وبأسلوبِ

الوصف والمتابعة. وهذا لم يكن ليعفيه من التدخُّل ومن رفعِ صوته الداخلي بتعليقاتٍ ومداخلاتٍ طويلة نسبياً، وبلغةٍ يمكن أن تقول إنَّها لغةُ مثقفٍ أو ناقد أدبي. وأشير هنا لمداخلاته المُسهَبة عن الفن الانطباعي ص ٥٢، وعن الرومنسية في الأدب ص ٦٢، وعن الحكمةِ المرجوة من التحليل النفسي. هذا إذا تناسينا تحليلَه المطول لسيرة حياة أخماتوفا وشعريتها وعلاقتها الملتبسة مع الدولة السوفييتية. لقد أسقطَ ذلك على السرد، وأكاد أقول إنَّه أَضافه، أو أقحمه عنوةً. وهذا شيءٌ معروفٌ في البدايات. فقد كان صوت الراوي يرتفع في أعمالنا الأدبية القديمة لإلقاء موعظة أو لتعليمنا درساً في الأخلاق (وأذكّر هنا بمونولوجات شكيب الجابري في رواياته المبكرة "قوس قزح" و"نهم"" و"قدر يلهو"، فهو يلقي علينا دروساً طويلةً عن أهميةِ العفَّة ودور الحضارة الروحية لأهلِ المشرق ودائماً – أو غالباً، من وراء حدود القصة، يعني من خارج ضرورات البناء الفني، وكلامه لم يكن يضيف شيئاً لمعلوماتنا عن الشخصيات)؛ ولكن في حالةِ زيد الشهيد لا توجد دروس تربوية، إنَّما مجردُ أفكارٍ عن الموسيقا والرسم واتجاهات الأدب كالشعر وخلافه. وهذا فرق هام. نعم، إنَّه إسقاطٌ أو استطراد ويلقي عبئاً إضافياً على الأحداث، لكنَّه لا يحمل عصاً ليضربنا بها. كان شكيب الجابري يعذِّب شخصياته بصوت ضميره الشخصي، ليذكِّرهم بعاقبةِ الحرية دون مسؤولية، وأنَّهم

ليسوا في إجازة ولكن لديهم واجب. أما الشهيد فقد كان يسترسل موضوعياً، ولم يفرض رأيَه علينا، ولكن أعربَ عنه من خلال شخصياته فقط. وأعتقد أنّه لا يسعنا أن ندينه على ذلك. فشخصياته هي من فئة البورجوازية الصغيرة. يعني مُتعلمة إنْ لم تكن مثقفة. ويحق لها أن تدلي برأيها. وقد عمدَ لمثل هذا الأسلوب علي بدر في معظم أعماله المتوسطة والأخيرة. وروايته (الركض مع الذئاب) ثم (أساتذة الوهم) مثقلتان بأفكار وتهويمات عن الثقافة ودورها في الوعي وتنمية الحواس، ناهيك عن تحليلات رفيعة المستوى للواقعية في الأدب وعلاقتها بالماركسية.

إنَّما لا بد من تسجيل نقطة نظام.

هذا الأسلوب يؤخِّر من فنونِ القول ويعمد لتعويم الوصف، ويكشف مرجعيات الكاتب، التي يستحسن تغليفها وتعليبها بأدواتٍ غير مباشرة (بتعبير الناقد الأدبي حمزة عليوي). فالروايةُ يجب أنْ لا تتعدَّى قوانين السرد والسرد فقط (بتعبيره أيضا). لكن كان علي بدر يعرب عن حقيقة رواياته. بتعبير آخر كلامه لم يخرج عن فنية العمل الذي أمامنا كأنه يكتب عن الدوافع وآليات الحبكة ولماذا اختار لرواياته هذا الأسلوب دون غيره.

أما الشهيد فقد راوح بين تقنية الأصوات وحديث النفس. لقد كانت شخصياتُه متردِّدة في رأيها مثلما هي مترددة في حياتِها واختيار نهايةً لقصص الغرام الذي تورَّطت به. وكان يحدوه

المفارقة أكثر من المتابعة. وبلغةٍ أوضح، لقد اختار أنْ ينفصل عن موضوعه، وفرض السفر في (الليل في نعمائه) على حزين (بطل الرواية). وفرض على نبيلة بطلة (الليل في علیائه) العودة إلى مسقطِ رأسها، ولم يقدم تبريراً. لماذا يفصل بين العاشقين مع أنَّ كل الظروف مواتية للمّ الشمل؟. هل كان يهرب من نقطةِ المصالحة، ويرى أنَّه لم يئن أوانها، ولا تزال معركتنا مستمرة مع الطبيعة الموحشة (وهي هنا الليل- بعفاريته ولونه الأسود ومخاطره) ص ١٢٩.أعتقد أنه أراد تمرير هذه الرسالة، ولا سيما أنه توجد نقطة بنيوية في تكوين هذه الشخصيات، وأقصد بذلك أنه لدينا حالة كعب آخيل، أو جزء مكشوف من أبطال الرواية في علاقاتهم مع أنفسهم وواقعهم. فمع أنهم من المثقفين هم لا يدينون للأنتلجنسيا بأية صلة. وبالعكس هُم جزءٌ من نظام العَمالة اليدوية. ومرتبطون بظرف الصراع مع الواقع بدافع البقاء وليس بدافع التطور. إنَّهم شخصيات يسعدهم الاحتفاظ بالمكاسب التي باليد، ولا يفكِّرون بتوسيع رقعة هذه المكاسب. وهذه أقوى علاقة يمكن أنْ تربط هذه الرواية بحقيقة شهرزاد. لقد كانت تكافح بحكاياتها ضدَّ الليل، وقانون الحاكم الجائر، لتبقى على قيد الحياة.

"كُنْ دائِماً شاعِراً حتّى في النثر"

شارل بودلير

(١)

غريباً
أتناولُ قَلَقي
لأعبرَ المُستحيل
وهذا التيه يُلوِّحُ لي
بالسخرية.

ما كانَ النهارُ على انتهاءٍ، ولا الغروبُ بدانٍ؛ إنَّما الشمسُ كانت تتراجع إلى مَخدعِها وقد زرعَت في النفوسِ أنَّ ساعاتِ العملِ اليومي المُعتاد أزُفت على الاكتمال بينما مُقبلُ الأمين بالبدلةِ الحنيّةِ المتكسّرةِ والقميصِ الرماديِّ القديمِ والحذاءِ الجلديِّ الجوزي المُترَبِ يخطو بأعوامٍ تدنو من الستّين مُفصِحةً عن شيخوخةٍ مُبكِّرةٍ بدَت أكثرَ وضوحاً هذه الأيام؛ يخطو بقدمين تقولان التعبَ وتُعبِّرانِ عن الشَّقاء، مُتجهتين نحو فمِ الزقاق الضيِّق الذي سيوصلُه الى زقاقِ بيت العمَّة الأكثر ضيقاً... هناك حيثُ سيجد الصِّبيةَ يلعبون والفتيات من وراءِ النوافذَ الطوليةِ المُقطَّعةِ بالقضبانِ الحديدية يتبادَلن النظراتَ ويتساءلن حُزناً عليه حين يلمحنَهُ يمارس طرقَ بابَ الدار الموصَد منذُ أشهر.. وإذْ يُزيد في الطَّرقِ تختطف بعضُهن عباءاتِهنَّ من مساميرِ تعليقها ويهرعن اليه:

"يا عَم، لماذا تطرُق، وتطرُق. لا أحدَ هنا.. تكرارُكَ الطرقِ لا طائلَ منه؟"

فيطـأطىء رأسَـه جزَعَـاً؛ ويـروح فـي مُحاولـةِ اخفـاءِ دمعتـين تترجرجان في مُقلتيه. يَحكُّ بحافاتِ أظافرَ اصابعِه الناحلة فروةَ رأسِه الغزير بالشيب، ويستدير.

إنَّها المحنةُ الأكثرُ وقْعاً على نفسِه، وأشدُّ مَضاءً حين يقارنُها معَ ما مرَّ به من مِحنٍ وما لاقاهُ من شدائد.. إنّه الرجلُ الأعتى بؤساً فـي مقارنـةِ المواقـف الحاسـمةِ التـي تتطلَّـب رجاحـةَ عقـلٍ وتراجعَ عاطفة.

بالأمس قالت له فتاةٌ مرَّت جواره، وقد تدفَّق الرثاءُ من عينيها: "ما بكَ، يا عَم تتعثَّر؟ كنتَ قبلَ اسابيع كالجَّبلِ، شامخاً؟!!!."

وتوقفت احدى نساءِ الزقاق غارقةً في دَهشـةِ حُزنِ عَميم: "لا أُصدق أنَّ الغيابَ يفعلُ بكَ ما لا تفعله رياحُ سمومِ الزمنِ على أُمّـةٍ بأكملِها... ما الذي يجعلُكُ تنوءُ بما لا تَحتملُ هذه الارض ثقلَهُ؟!!"

يندفع مُتحرَكاً لئلا يزيد من اظهارِ ضَعفِه ويراكم في نفوسِهن أحجـارَ التأسـي عليـه.. إنَّ الأسـى أحجـارٌ تتـراكم فـي بئـرِ قلبِـه الجريح، مُذ أوصِدتُ البابُ ولم تُوارَب،. وإنّه بياناتُ تهالكٍ تُعلِنُ تَحطِّمَ ذاكرته المُتعَبة ورميها هشيماً.. فذاكرتُه في الأشهر القليلةِ الماضية كانت أرضَ معركةٍ حاميةٍ؛ تَلقّى فيها الهزائمَ تلوَ الهزائمِ،

والخساراتِ فوقَ الخسارات.

يَصفِقُ كفّاً بكَف، ويُتمتم بما لم يَستطعنَ سماعَه. فيقفلنَ عائدات الى بيوتِهن، والصِّبيةُ من بين لحظاتِ توقفِهم عن اللعب يُشيِّعونَه بحسرةٍ، ويتوجَّهون اليه يسألونَه إنْ كانَ بحاجةٍ لمساعدةٍ.

صار دخولُه الى الزقاق عادةً يومية. وإنْ تخلَّف يُدرك الجميع أنَّ نزلةَ مَرضٍ ألَّمت به فيتبارى عديدُ الجيران يسألونَ عنه في نيّة تذليلِ وتبديدِ مِحنةِ علَّتِه؛ لكن دونَ جدوى. فالمجيبونَ يجهلونَ مكانَ اقامته. وكثيراً ما صرَّحوا انَّهُ رجلٌ مُبهَم. فهُم لا يعرفونَ مَن يكون.. إنَّهم يعيشون الحياة البسيطة ويتنقلون على أرضٍ زرعُها من التعلمِ والتثقّف ضعيف.

يقتربُ من الدار، يمسحُ البابَ بعينين غمرتهما اللهفةُ.. قليلاً ويرفع نظراتِه يطالع الواجهةَ بأكملِها كأنّه يصوَرها حجراً حجرا، فيبصرُ عصافيرَ على حافةِ حائطِ السطح تسعى للإياب الى النخلةِ المُنتصبة وسطَ الحوش؛ تُحرِّكُ رؤوسَها باستنفارٍ وتطيِّرٍ قبلما تحفَّز اجسامَها المِغزليةَ وتختفي.

يوشكُ على نقرِ خشبِ الباب.... ثم يتراجع.

وأخيراً يطرقُ ويطرقُ كمَن يَسمع حركةً في الداخل، كمَن يتناهى اليه وقعُ خُطى تَقترب.

تحزنُ المرأةُ المؤجرةُ لرؤيتِه مُنكسِراً. تتمنّى لو امتلكت مَعرفةَ مكانِها لتجشَّمت العَناءَ من أجلِ الوصولِ اليها وتقديمِ صحائفَ

العتاب:

"غيابُك سحقَ أباكِ؛ فليسَ عدلاً أنْ تتجاهلينه. وهو كلُّ يومٍ يجيء. يطرقُ البابَ حتى تتعب يدُه.. اعتقد انكِ قسوتِ عليهِ قسوةً مُريعة.. ما هكذا الأبناء، يا ابنتي. فالآباءً هُم دعاءُ الله المُستجاب.. لماذا اهملتِه، وارتكبتِ فعلَ رحيلك.. لماذا تركتِه للمعاناة والألم؟!."

وإذْ تكلُّ ذراعُه وينقذه رجاءُ صِبية أو فتياتٍ يتبرعن لانتشالِه من جحيم الطَّرقِ يستدير، وقد قالَ له القدرُ: ما حَصلَ حَصل؛ والغيرةُ المقرونةُ بالحَسَدِ في أمّةٍ ضحِكت من جهلِها الأممُ لنْ تكونَ مفردةً كريهةً تثيرُ الاشمئزازَ وتبعثُ على النفور، وإنَّ بغضَ البشري لأخيه البشري لن ينتهي.

لقد جاء فقدُه لها على ايقاعِ غيرةٍ وحَسدٍ؛ على وقعِ نميمةٍ أو وشايةٍ لا أساسَ لها. فالذين قالوا له اكبحْ جماحَها هم الذين صارَ يبصرُهم بعيونٍ تتفجَّر انشراحاً، وتقاسيم وجوهٍ تفشي سرَّ تشفّيهم.. ولكنْ متى حصلَ هذا الاكتشاف؟ متى تمَّ الادراك؟

كلُّ شيءٍ تأتي به المرارةُ والندمُ يأتي بعد فواتِ الأوان.. بعدما جَرَحَ القلبَ الذي آلَ على نفسه ألاّ يَجرحُه طالما ذلك القلبُ يرفلُ على خميلةِ السعادة والهناء.

إنَّ الحزنَ ليَطغى؛ وإنَّ القلبَ لجَريح.

يعود الى الشارع؛ مُتعثِّراً، متهالِكاً كأنه أعمى يتلمَّس الدربَ،

ويهجس من أيَّما خطوةٍ يخطوها.

يتردَّدُ رنينُ صوتِها، آتياً من الدروب البعيدة لذاكرته التعبى: "أبي الغالي: ما اريدُه منك فقط احتفاظُكَ بي في ذاكرتِك."

وها هو منطفئ إلا من صورتِها المتوهِجة في الذاكرة.. يشعرُ أنَّ انطفاء الصورة يعني خاتمةَ حياته،، يعني انطفاءَ العالم، وقذفَ الأرضِ الى غياهِبِ العدم. فبغيرِها كلُّ شيءٍ موات.

تتابعُه المؤجِّرة فتعودُ اليها صورةُ حضورِه وهي معه لأولِّ مرَّةٍ، تستقبلهما بعينِ الإكبار.

لقد كانَ حديثُه معها بنبرةٍ ثقافيةٍ تنمُّ عن رجلٍ يُحسِنُ الكلامَ ويؤثِّر في مُستمِعهِ. وكانت هي بقامتِها الطويلةِ الجميلةِ وببراءةِ عينيها الصافيتين وبشبابِها الثلاثيني الناضج. يطالعُها بقسماتِ الإكبار والفرحِ لحظةَ تتحدَّث بينما هي تلصقُ عينيها برفرفةِ شفتيه وهما ينطقان بعسلِ الكلام.

((لم أرَ أباً يحنُّ على ابنته ويُكبِر فيها سلوكَها وحسنَ تصرفِها مثلما لم اشهدَ ابنةً تتعلّقُ بحديثِ أبيها فتتمنّى لو حصدت الكلامَ وَرْداً قبل أنْ يسقط أرضاً. لقد كانا شخصين يرتفعان عن أرضِ الواقعِ كأنهما ملاكان. كم سعُدت لقبولِهما استئجار البيت. وأفصحتُ أنَّ البيتَ سيكونُ سعيداً بوجودِهما. وكان جوابُهما سويةً ينُم عن شكرٍ واطمئنان. ذلك انَّهما سمعا من صاحبِ مكتبِ العقارات الذي دلَّهما عليه أنَّه بيتٌ هادىءٌ ومناسبٌ لمن يستأجره

قصدَ الاستقرار.

كانت دفعَت ايجارَ البيت لعامٍ قادمٍ وغادرته. قالت لي:"عليَّ زيارة الأهلِ؛ أيام وأعود.".. وكنتُ أعدّ الايامَ لعودتِها؛ لكنّها لم تعُد وأنا أرى الأبَ يأتي ينوءُ بالأعوامِ ليقف عند البابِ ويطرق.. ثم يتوقف. يدري أنْ لا أحد.. يصرفَ الكثيرَ من الوقتِ واضعاً رأسه على خشبِ الباب؛ حتى إذا ملَّ استدارَ عائداً... يهرعُ اليه الصغار: لا أحدَ هنا، يا جدَّنا.. لا وجودَ لجميلة في البيت. فيمرّر يدَه الحانيةَ على رؤوسِهم، ويتمتمُ:" ها.. غير موجودة؟.. يعني ما عادت؟".. فيردون وقد أشفقوا عليه:" لا.. لو كانت عادت لركضنا اليك نُبشِّرك وأنتَ تدخل الزقاق."... يبتسمُ لهم بحنوٍّ، ويثني بكلماتٍ دافئةٍ على ردودِ افعالِهم البريئةِ وهي تقطرُ عَطفاً عليه ومواساة.))

يطالعُ وجوهَ المارَّةِ بفضولٍ علَّه يكتشف من بينها ذلك الوجه الذي رآه لآخر مرّةٍ يتكدَّر، وإنْ هو طلبَ منها بحنوٍّ استبدالَه بالوداعة، وتضرَّعَ لها توديعَه بعينين صافيتين.

لقد كان تطلُّعُه الى الأشياء والتعامل معها منذ فتوتِه يتمُّ من بابِ الفضولِ الآيلِ الى الاكتشاف. فاكتشافُ الأشياءِ هو من هُمومِ البَشري واهتماماته؛ وهو ما جَعلَه دائمَ البحثِ؛ وهو ما أخذَه الى مَراتبَ التقصّي الحثيث؛ وهو ما دفعَه حينَ كبُر وتحتَّمَ عليه الاختيارَ التوجّه الى قِسمِ التاريخ في دراسته الجامعية ليكونَ على

تماسٍّ مع الأحداثِ، وعلى رغبةٍ في البحثِ وسَبر الأغوار، كذلك السعي لمعرفةِ الدوافعَ التي تحدو كثيرَ من قادةِ العالم، مثلاً، الى افتعالِ أحداثٍ وخَلقِ مُسبِّباتٍ تقودُهم الى اعلان الحرب والدخول في صراعاتٍ دمويةٍ دونَ النظرِ الى التَبعاتِ الخطيرة الكبرى والنتائجَ المأساويةِ العظمى. هذا الى جانبِ اهتمامُه الأدبي الذي تعدّى المطالعةَ الى الكتابةِ، الى تكريسِ الموهبةِ لتسكُب جذوتَها المعرفية على الورق، الى التميُّز في حقلِ التدوينات السردية وكتابتها باحتفائية يَسعَد لها القرّاء والمتلقّين ممَّن يرونَ في هذا الخطاب السردي حواريةً حميمةً بين باعثِ رسالةِ كاتبٍ، ومستلمِ رسالةِ قارىءٍ ، شَغوفٍ بالقراءةِ وحالمٍ بعوالمَ تَقي الانسانَ شرورَ الاستحواذِ والعسف؛ آخذةً به الى التحلّي بالإيثار ونكران الذات.

في الشارعِ عادةً ما يتبدَّل الموقفُ؛ إذْ حالما يخلِّف الزقاق وراءه تعتريه حالةُ شعورٍ بالأمل، فيُبدِّد غيومَ يأسٍ تزاحمت وثقلت في رأسهِ بعد استدارتِه وتركِه الدار وقد كلَّ مَتنُه ولوَّحت له كفُّ الضياع بضآلة الأمل... إنه يفتقد مَن غابت بعدما افتعلَ مَعها شجاراً لا داعي له. إنَّ الانسانَ لفي خُسرٍ حين يرى نفسَه مُتَجبِّرةً على الآخرين؛ وبالأخص أولئك الذين جعلَ لهم مكانةً عُليا فيها.

الآن يجدُ في حركةِ المارّة، وتقاطعِ المَركبات، وبَهرجةِ المعارض والمحلات وهي تُقدِّم بضاعتَها بأناقةٍ وترفٍ حالةً من تبديدِ القلق واستبدالِه برؤيةٍ تُقرِّبُ الى عقلَه فكرةَ أنَّ الغائبَ سيعود

وإنْ حملَ غيظاً في صدرِه؛ وإنْ آثرَ الفراقَ بمحضِ ارادته.. سيعودُ لا محالة. فالغائبُ أصيلٌ، والاصالةُ لا تتمثل الا بذوي المقامات العُليا مِن الكياسةِ والاتزان؛ والمترفعين على الصغائرَ والتفاهاتِ.

يتمتمُ بشيءٍ من الرِّضا المُتخلّي عن الجزع:" لا بأس، لا بأس.. كثيراً ما جرحَ الابناءُ الآباءَ؛ وكثيراً ما عَفا الآباءُ عن الابناء.".

ومرَّ من أمامِه بائعُ الصحف الذي لطاما شاهدَه يشقّ زحامَ السوقِ او يتبارى في الظهورِ مِن بين المَركبات حاملاً على كتفه تلّاً من جرائدَ ومجلّاتٍ تناسلَ عددُها وكثُرَ بعد سقوطِ النظام الأحادي المَنحى في صُحُفِه التي لا تتجاوز عددَ اصابعَ الكف.. "إنَّ انتشارَ الصحافةِ وفاعليتَها، واتساعَ رقعةِ الميديا واميبيتها لَهما من ظواهر الألفية الثالثة التي جعلت من العالم تواصلاً لا تعقيد فيه، واطلاعاً لا يقتصر على أمّةٍ دونَ غيرِها." هذا ما اعتادَ على ترديده أنّى تحدَّث أو أبدى رأياً طولِبَ فيه.

إنَّ بائعَ الصُّحف الذي مرَّ من جوارِه بدا كأنَّه لم يرَه؛ لذا اطلقَ صيحةً خافتةً تنبَّه لها البائع فاستدارَ، فاعتذرَ؛ فقدَّمَ له بيدٍ سمراء لوَّحتها الشمسُ صحيفةَ " الزمان " المُفضَّلةَ لديه. ذلك أنَّ في هذه الصحيفةِ اكثر من صفحةٍ مُكرَّسة للتأريخ؛ تتناول أحداثاً انعطافية، وشخصياتٍ لعبت دوراً في مجرى الزمن ومساره؛ اضافةً لأربع صفحاتٍ أدبيةٍ وفنيةٍ يوميةٍ قلَّ أنْ تجدها في صحيفةٍ عراقيةٍ أو

عربيةٍ. (كانت المؤجِّرةُ تشهد حضورَه اليومي مع ما بيده من صحفٍ ليسلِّمها الى ابنته، وكثيراً ما طَرق عليها البابَ لتسلِّمَها لها عندما تكون الابنةُ في الخارج... ولقد شاهدت المؤجرةُ عديدَ المرات صورةَ الرجلِ منشورةً في الصحف فتبارى في رأسِها شعورُ انَّه مُهمٌّ. وأنْ لا غرابةَ إنْ اعجبتها شخصيتَه من أولِ يومٍ رأته، وافعمَها كلامُه بحسن القول.)

لم يَكُن ليصبر حتى يعود الى بيته ويشرع بمطالعةِ الصَّفحات؛ خصوصاً باب "ألف ياء" التي تتولّى نشرَ نتاجاتِ الأدباءِ والباحثين. لذلك ساحَ بعينيه حول المكان بحثاً عن مقهى ومنضدةٍ فارغةٍ تضمُّه ليقرأ ما نشر من أدبٍ كتخصصٍّ فرعي لديه، ثم يذهب الى الصفحاتِ التي تُعنى بالتاريخ والشخصيات التي دخلته وتركت بصمةً تثيرُ الاهتمامَ والدراسةَ.

إنَّ التاريخَ يظلُّ المثيرَ الدائمَ لذائقةِ البشري الباحثَ عن تجاربَ الآخرين وحياتِهم وطبيعةِ الأزمنةِ التي مرَّت بها الانسانيةُ. لذا كانت مفردةُ تاريخ تُحدِثُ رنَّةَ جرسٍ في مسمَعِه، ونبرةً مُنغَّمةً حين يتوجّه ليدخل مِن أحد الأبوابِ قصدَ الاثارةِ والمتعة.

لحظةَ اقتربَ عاملُ المقهى ليضعَ استكانَ الشاي مَقروناً بقدحِ ماءٍ عَذب تسمَّرت نظراتُه على اسم "جميلة عبد الجليل"... وكان الاسمُ يقدِّم مادَّةً بحثيةً في الصفحةِ التاسعة مِن الصَّحيفة، عنوانها " النساء عند مُقبِل الأمين".. وما مُقبل هذا الَّا هو.

إنَّها تذكرُه وهي في بِعادِها... هذا يعني أنَّها تُعبِّر عن وفائِها لـه. "إنَّ الأصـيلَ لا يتخلّـى عـن أُصـولِه. تجـده دائـمَ التصـرّف بالحُسنى اعتماداً على ما لديه من رصيدٍ اخلاقي." يتمتم.. ومع التمتمةِ تعتريهِ رعدةٌ في جسده الواهن. رعدةٌ جعلته ينهض ليتَّخذ درباً يتحاشى فيه زحامَ المارة، فيدخل ازقةً اختصرت له المسافةَ وصولاً الى البيت.

هناك أدارَ مفتاحَ الباب، ودخلَ مسرعاً.

خلـعَ الجاكيتـة التـي غَـدت فضفاضـةً بعـدما تقادمَـت الاعـوامُ وسـلبَت مـن سـمنتِه الكثيـر فعلَّقهـا فـي مكانِهـا المعهـود بخزانـةِ الملابس جوار مِعطفِه الصوفي الأسود الذي عُرِف بـه؛ يرتديـه طوال الشتاء مَصحوباً بقبعةٍ سوداء صوفية هي الأخرى، ويتعكَّز علـى عِكّـاز مـن خشـبِ الابنـوس، فتقفز الـى مُخيلـةِ مَـن يبصـره صورةَ ونستون تشرشل، ينقصه السيجارُ الذي يشذُّ في تدخينه عن تشرشل، ذلك انّـه يتلذَّذُ بامتصاصِ دخانِـه المُعطَّر بعطرِ الفانيلا في البيت، وفي قاعةِ الدرسِ أثناءَ الفسحةِ الزمنيةِ بين الدروس؛ ولم يُشاهَد وهو يُدخِّن في الشوارع أو المقاهي أو أيِّ مكان يباح فيه التدخين.

نـدَه عليـه المطـبخُ فدخلـه قصـدَ عمـلِ شـايٍ بيـده؛ فالعاملـةُ البنغاليةُ الشابة التي تعاقَد مع أحدِ مَكاتب بغداد على حضورها بغية خدمته بعقدٍ مدَّتُه اربعةُ اعوام سافرت في اجازةٍ الى بلدِها

لمدة شهر تعود بعدها بفترة عقد جديدة. فقد خدَمَته خِدمَةً ارتضاها بـودٍّ وأغـدَقَ عليهـا قبـلَ سـفرِها بمـالٍ اضـافي واشـترى بعـضَ الحاجيات هديةً لوالديها واخوتها الثلاث.

كان شاي اللبتُن المفضَّل لديه سَهلَ الإعداد، ما أعانه على الاتيان به في استكان وضعه على طرف منضدة الكتابة. ومدَّ كفاً تفتح صندوقَ السيجار، المعمول من خشبِ الصاجِ والمُطعَّم بأصدافٍ بحرية، ساحباً سيجاراً كوبياً لا يشعله إلا وهو في حالات الانشراح.. فالمرءُ حين تلوِّح له الأقدار بما يريحه ويسعده يستحيل هَزاراً، يغرِّد فيحاكي الطبيعةَ التي لا يراها الا ذلك البستان المقرون بمتطلبات النَّماء واليناعة والاشراق، أو تلك الحديقة المتباهية بورودِها وبتلاتِها رِفقَةِ عطورٍ تنفثها كؤوسُ ومياسمُ تلك الورود.

إنَّ النفسَ لروضٌ وضاءٌ تلك اللحظة. وإنَّ الصحيفةَ لمنشورُ اعلانِ السعادة.

وكانت الصفحةُ التاسعة من "ألف ياء الزمان" في شغفٍ لرفعِها بكفيه، وتهافت اسطرِها وكلماتِها على مرأى من عينيه.

لقد تابعت جميلةُ عبد الجليل منشوراتَه السرديةَ منذ سنوات، ووجدت أنَّ المرأةَ في اعماله لها حضورٌ جوهري. وكان هو في ندواتِه ومحاضراته يركِّز على موضوعةِ المرأة ووجودِها المقموع في واقع عربي متهالك. لذا خمَّن أنَّ الموضوعَ المنشور الذي

تتناوله من قِبَلِها يُشكِّل حَلقةَ تواصلٍ مع نظرته؛ هي التي كانت تأخذُ برأيه في هذا الشأن وتقفُ بوجهِ مَن يرى أنَّ المرأة لا تنقُصُها الحقوق. إنَّها في الحُقوقِ كالرجلِ تماماً؛ وإنَّ اولئك المدافعين عنها انَّما هُم فرادى يُغرِّدون خارجَ اطارِ الشرع.

ولم يكن مُخطِئاً في تخمينه؛ فقد استهلَّت الباحثةُ دراستَها مركِّزةً على تاريخ قمعِ المرأةِ الغائر في عمقِ التاريخ العربي: مِن "سيدوري" ساقيةِ الحانة في حُقبة جلجامش حتى زمنِنا الحاضر الذي يجعل البنتَ التي بعمر التاسعة تدخل سجنَ الزواجِ الاجباري... ثم تواصلت بأمثلةٍ ومُستَجدّاتٍ مُقتَبسةٍ من مقالاتٍ منشورةٍ له في عددٍ من كتبه أو ممّا احتوتها المجلاتُ الادبيةُ وتلك المتعاملة مع التاريخ.

شعرَ بالزهوِ وهو يقرأ استقراءاتها ذات الملامح التي تنُمُّ عن ذَكاءٍ وحَصافةٍ، ورسوِّها على خاتمةِ أنْ لا أملَ من خروجِ المرأةِ من عنقِ زجاجةِ القيم والتقاليدِ وقراءةِ النص الثاني للقرآن الذي وضعَه الفقهاءُ فشكَّلَ جداراً عازلاً يَقمعُ محاولاتِ المرأةِ أو الذين يقفون الى جانبِها في اعتلائه وتجاوزه، ومن ثم الوصول الى الشعور بمكانتها الانسانيةِ كعنصرٍ مُهمٍّ وفاعلٍ في مسارِ بناءِ الامَّةِ.

"إنَّ الأممَ التي تتنكَّر لأهميةِ المرأةِ في بناءٍ اجتماعي حضاري رصين لهي أمةٌ فانية. "كان يردد في جُل محاضراته ولقاءاته،

سواء الصحفية منها أو التي يعرضها التلفاز؛ رابطاً ذلك مع دعوةِ الضرورة للحاق بركبِ الأمم النيّرة وأخذِ تجاربِها مأخذَ الجدِّ. فلا حياة لأمةٍ تتنكَّر للنورِ القادم وتتشبث بالعتمة الماضية.

إنّ العتمةَ لعَماءٌ أبدي.

وتذكَّر أنَّ بعضَ مما أوردتهُ في المقالةِ نوقِش قبلاً في محاضرةٍ القاها على جمعٍ من طلبةِ الدراساتِ العليا، وكانت هي ضمنَ الحضورِ تتابعُ ما يقول فتُسجِّل باهتمامٍ وبتحفِّزٍ.

لقد وجدَ اللحظةَ أنَّها تضعُ القَدمَ المُثلى على طريقِ التميّز في الكتابة وعرضِ الأفكارِ التي تشكِّل عاملَ اثارةِ نقاشات وتساجلات.

وعادَ اليه حُزنُه ببعدِها عنه. عادَ إليه الحنينُ، وتقريعٌ صارَ كالجرح يُنكأ لمجرّد تذكُّرها. فالجِّراحُ أفواهٌ لا تُغلق؛ والزمنُ لطالما تهالكَ وانكفأ أمام جراحٍ يتوالى نزيفُ دمِها فلا ينقطعُ أو يتضاءل.. لذا قرَّرَ الاتصالَ بالصحيفةِ لمعرفةِ الوجهةِ التي ورَدت منها الرسالةُ.

نهضَ، وإلى التلفون المركونِ على طاولةٍ جانبيةٍ وجّه بصرَهُ.. رفع السمّاعةَ وضربَ ارقاماً استخرجَها من الجريدةِ ثم انتظر. لكنَّ الاتصالَ قُطِع إذْ لم يتمَّ الردُّ حتى وهو يُكرِّرُ المحاولةَ ثلاثَ مرات؛ فأعادَ السمَّاعة الى مكانِها شعوراً منه انَّهم ما عادوا يردّون على المتصلين جرّاءَ تداخل الخطوطِ.

طـالعَ الكـرّاسَ المفتـوحَ وفـي وسـطِه القلـمُ بحبـرِه الازرق علـى منضدةِ الكتابةِ فأثارَه حافزُ قراءةِ ما كَتب حين استيقظَ في الرابعةِ صباحاً كعادتِه اليوميةِ في الاستيقاظِ وعملِ فنجانِ قهوةٍ يحتسيها بتلذّذٍ رُغمَ مرارتها... قلَّب الصفحات ليُحصي عدَدَ اسطرٍ ملأها، وجموعَ مفرداتٍ تشكِّل مداد مشروعِ كتابةِ ذكرياته.

إنَّه وبعدَ غيابٍ جميلة قررَّ تأرخةَ علاقتِها به. فيومَ ظهرتْ ودخلتْ عالمّه قلبت موازينَ استقرارِ حياتِه وكادت ترمي به الى هُوّةِ التبعثّر.

(٢)

يَغرقُ هذا البهاءُ في اليَمِّ
وأنتَ تَقتني الرَّمادَ
لَوناً لكبريائِك
تَتخلَّى عن العنفوانِ
وتكتفي بالنَّظرِ
إلى حَجرٍ صامتٍ.

ذلك الضحى الرطيب من خريفِ ما قبلَ خمسةِ أعوامٍ سمعت المرأةُ المؤجِّرة نقراتٍ على خشبِ الباب فتحرَّكت كما عهدَها بخطى وئيدةٍ وفي ظنِّها أنَّ جارةً جاءت بأكلةٍ جديدةٍ انتهت من اعدادِها في المطبخ وتريد مشاركتَها والأُسرة بتذوّقِها وتناولِها، أو العكس. وقد تكون أتَت تسألها عن رأسِ بصل أو بطاطا أو بهارات اكتشفت أنَّ المطبخَ خلا منها. فالتوادُّ والتعاونُ والطيبُ صفاتٌ ثلاث من حشودِ الصفاتِ الانسانية التي يتحلّى بها سكنةُ الزقاق... وإذا بها حين فَتحت البابَ تواجَه برجلٍ يقترب من الستين، ملابسُه مترفةٌ ومَظهرُه يفشي سرَّ بقايا وسامةٍ كان يتحلّى بها زمنَ الشباب. الى جانبِه فتاةٌ رشيقةٌ ووسيمة، بطولِ فارعٍ، لم تتعدَ الخامسة والعشرين. كانت بوجهٍ كالقمر في توهِجه، وبعينين كنجمتين تبرقان صفاءً.

"استدللتُ على بيتكِ من مكتبِ العقارات في رأسِ الشارع. ألستِ انتِ المؤجرةُ للبيت الملاصق لبيتك؟"

"نعم.."

"أريدُ استئجار البيتِ لابنتي هذه، مُعلمة تدرس في مدرسةٍ ريفية."

أخذتهما الى البيت الملاصقِ لبيتها.. فتحت لهما البابَ الرئيس؛ ودخلا... وقفَ وسطَ الحوشِ وقد تهلَّلَ وجهُه، واتسَّعت عيناه الحسيرتان.. قليلاً واستدار يُسمع الفتاة التي وقفت خلفه:

"الفناءُ وسيعٌ سيكون مُحبَّباً لك."

وتحرّكَ يطالعُ الغرفتين، وهي لصيقة به.

"غرفتان تلائمانِك."

"نعم، نعم.. ويمكننا اكمالُ النواقصَ فيهما."

"كلُّ النواقصَ سنكمِلُها.. كلُّ ما يريحُك سننجزُه." قالها بنوعٍ من التدليل واشاعةِ روحِ الحنان من أبٍ يحرص على سعادةِ ابنتِه واراحتِها.

في اليوم التالي، وبعدما اتفقا على مبلغِ الايجار ودفعَ أُجورِ ستةَ أشهرٍ مُقدَماً حسبما ارتأى هو ولم يكن شرطاً من شروط المؤجرة، حضرَ كادرٌ فنّي زَرَعَ سقفَ غرفةِ النوم بزُخرُفِ مَرايا، وجدرانا سكَبَ عليها ألواناً جاءت بذوقِها... بعدها بيومين انتهى تأثيثُ الغُرفةِ واستكمالُ حاجتِها لأدوات الطبخ.

توزَّعَ السريرُ العريضُ في وسطِ الغرفةِ وعلى جانبيه كانت مصابيحُ التيبل لامب، وعلى الجانبِ الأيمنِ كان أبو تواليت المعمولُ من خشبِ الصاج القهوي اللميع بثلاث جوارير وسطية ذات اكراتٍ ذهبيةٍ كرويةٍ وقد تكدَّست على سطحِه مختلفُ قناني العطور فيما الجانبُ الأيسر نُصِبت خزانةٌ ابنوسيةٌ لميعةٌ لخزن الملابس.. ما لفت انتباه المرأة المؤجرة هو تلك الصورة المزججة والمؤطرة باطارٍ نيكلي جمعَ صورةَ الرجلِ ببدلةٍ قمحية وربطةِ عنقٍ ذهبية؛ ومعه هيَ بقامةٍ سامقة تقرب من قامته، ووجهٍ طولي تتحلى به عارضات الازياء.. عيناها تقطران عسلَ براءةٍ لشابّةٍ سيظنُّها الرائي طفلةً لمّا تدرك تخومَ الشباب.

حين اكتمل تأثيثُ البيتِ واطمأنَ على يقينِ هَناءِ بسَكَنِه توجَّه إلى المرأةِ المؤجِّرةِ بنظراتٍ تُمطرُ توسلاً، وكلمات يفوحُ منها شذا الرجاء.

"هذه ابنتي جميلة.. أمانةٌ عندكِ تدارينها بغيابي."

تشديدُه على اسمِها ولَّد لدى المرأةِ شعورَ أنَّه يُحبُّها، ويحنو عليها كما يحنو أبٌ على طفلةٍ لا تتعدّى أعوامَها عددَ اصابعِ الكف.

من يومِها ولم ترَه المؤجِّرةُ يأتي ليدخلَ البيت؛ انَّما كان ينتظرُ ابنته ساعةَ العصرِ حينما تَحتاجه. وهذا يحصلُ قليلَ المرات. امَّا العديدُ منها فهو عندما تخرجُ وايّاه في المساءات.

اعتادت مرافقتَه مساءً، ثم تعود في ساعةٍ غيرِ مُبكِّرةٍ من الليل.. ينعمان بصفاءِ الصحبةِ وينهلان من فيوضِ النقاء.. (هو) يشعرُ بسحرِ كلماته عليها فيسعَد فيما (هي) تعومُ في عَميمِ نهرِ حكاياتِه المتعاقبةِ فتثملُ بخمرِ البهجَة المشتهاة.. يشعران أنَّ حوارَهما المتبادَل يجعلُ الليلَ شديدَ الانصاتِ لهما، شديدَ النقاء ، فيزرعُ الفضاءَ صمتاً كي يستمعَ ويستمتعَ برويّةٍ.

قال لها: "أحبُ الليلَ، يا جميلة، فهو مُلهمي وصديقي حين أحنُّ الى الارتواءِ من فيضِ الذكرى التي لم تبرح تشكِّل تاريخَنا المتواري خلفَ حُجب الزمنِ".. وكثيراً ما ردَّ على مسمَعِها:"مَن لا يعرف طعمَ حلاوةِ الليلِ لا شهيةَ له في الحياة."

وكانت توافقَه في الرأي، وتجدَ في كلامِه حكمةً.

إنَّ الليلَ في نقائِه كالروحِ في سعادتِها.

يرجوان الليلَ يطول؛ فليس في غيرِه هذا الأنسُ المصحوبُ بالسكونِ؛ المَقرونِ بالسعادة."

فقط السعادةُ ما يتبادلان.

إنَّ السعادةَ لنصٌّ يتجاوزُ الاكتمالَ الى بثِّ عطرِ الاستمتاع بقراءتِه؛ وإنَّ النصَّ المُمتعَ ما هو إلا قراءة يتحاوران بشأنِ اهميتِها... يشعران أنَّ نصّهما المشترك هو الليلُ في بهائِه، الليل في عليائِه، الليل في نعمائِه، وأيضاً في قاموسِ عذوبةِ كلماتٍ لا تنتهي يأتي بها سحرُ الليلِ ووداعته.

يجتازان شارعَ السينما المزدحمَ ويخترقان أماكنَ تعجُّ بالمطاعم والمقاهي. دخانُ شواءِ شحومِ الشاورما ولَحمِ الكَباب يختلط مع دُخانِ الأراجيل بالروائح المتنوعة لهذا الوافد الدُخاني الذي لم يَعرفُه العراقيون قبل العام ٢٠٠٣. فكلُّ ما كانَ سائداً من تِبغِ الاراجيلِ قبل ذلك العام هو التنباك المُنتَج من بساتينِ كربلاء أو القادم من شمالِ البلاد.

ينعطفان يميناً فيتَّخِذان دربـاً تتراجع فيها الأدخنةُ وروائح الشواءات وصولاً الى شارع الكورنيش... هناك يحتفيانِ بالإضاءةِ الحليبيةِ الجميلةِ تدلقُها المصابيحُ من علوٍّ بعيدٍ تجعلُ المارَّةَ في نَهلِ هَناءٍ مُرتجى.. يحاذيان النهرَ ويمسّان بأكفِّهما برودةَ السياجِ النيكلي الذي يَفصلُ المارَّةَ عن النهرِ؛ حتى اذا ما أدركا الجسرَ ارتقيا درجات أربع وهما ينويان العبور الى صوبِ القشلة.

عندما يُخلِّفان الجسرَ ويستديران شمالاً تنده عليهما مصاطبُ اعتادا اتخاذ احداها مَجلساً كلَّما قدِما الى المكان.. يجلسان وقد جعلا وراءَهما بيوتَ الاماميين وبيوتَ الدَّهانيين أقدم عائلتين سكنتا ذلك الصوب في أوائل القرن العشرين.. هناك يكونُ النهرُ بمحاذاتِهما فيروحُ هو صحبةُ الليل يشرعُ بالحكي لها.

كلُّ ليلةٍ حكايةٌ، تتبعُها حكاية.

حكاياتٌ يمتزجُ فيها التاريخُ بالأدبِ. فالاثنانُ، التاريخُ والأدبُ، صنوانُ متلازمان.. يقول: "لطالما كانَ التاريخُ خادماً للأدبِ مثلما

استحالَ الأدبُ لصّاً يَسرقُ من التاريخِ جَذوةً مِن هُنا وجذوةً من هُناك؛ فيحيلُها مادةً ادبيةً تُبهرُ القرّاء.. فيوليوس قيصر كان تاريخاً سرقه شكسبير وقدَّمه وجبةً شهيةً على مأدُبةِ الأدبِ مثلما قدَّم روميو وجوليت؛ ومعهم عُطيل وهاملت.. كليوباترا كانت تاريخاً حوَّله أحمد شوقي إلى رحلةٍ شعرية تُجسِّد حبَّ الملكةِ لبلدِها مصرَ وإنْ اتَّهمَها الرومانُ والغربُ بالمجونِ والتهتُّكِ، وجعلوهاً لَعوباً لا تعرفَ الوفاء... ملحمةُ جلجامش كانت تاريخاً أوصلَها طه باقر نصاً شِعرياً مُترجَماً إلى الانسانيةِ، له أولٌ وليس له آخر.. قدَّمه نصّاً منفتحاً على الذائقةِ في كلِّ زمان ومكان.. وكان ماجِلّان قاهر البحار تاريخاً، جعل منه ستيفان زفايج رحلةً أدبية تلهمُ القارىءَ متعةَ الابحارِ وتمنحُه فرصَ التجوال بين الموانئِ والأرخبيلاتِ والأحراش."

يُسمِعُها أكثرَ من حكايةٍ ومزيداً من المعلومات والمعارف؛ حتى اذا شبِعت من الانصاتِ العَذبِ؛ وأفرغَ هو ما ظنَّه كلاماً لا يجب أنْ يطول نهضا في غَمرٍ من السكون الجميل وموسيقى حفيفِ شجر الكالبتوس المتوزع بنسقٍ مُلفتٍ على امتدادِ شارع الكورنيش الذي يبرحانَه.

ولم تشعر جميلةُ بخطأ قرارِها تركَ اسرتها في المدينةِ البعيدةِ ومجيئها الى هنا للنهلِ من منهلِه؛ وكثيراً ما ردَدت: "نعم، لقد ارتكبتُ فعلَ المجازفةِ. والمجازفةُ تتطلبُ صلابةَ الرأي ودقّةَ

القرار. "فتنبثق في ذاكرتِها قولُه بأول محاضرةٍ حضرتها له:" إنَّ المجازفةَ تتطلَّبُ صلابةَ الرأي، ودقّةَ القَرار." في اشارةٍ واشادةٍ منه الى ابراهام لِنكولن وقرارِه التاريخي بتحريرِ العَبيد، إذ واصلَ هذا الابيضُ العِرقِ والنَّسَبِ تحدّي الجنوبيين، وأصرَّ على اعلانِ التخلّي عن أعَرافٍ عَفا عليها الزمنُ كما ارتأى، وآنَ للعبوديةِ أنْ تتفكَّكَ فتغدو شيئاً من الماضي، وآنَ للإنسانِ الأسودِ البشرةِ السيرَ بلا قيودٍ تكبِّله وبلا قراراتٍ جائرةٍ تلاحقُه، وبلا تَصرّفٍ مَقيتٍ يُجيزُ للأبيضِ بيعَه وشراءَه كما تُباعُ الماشيةَ وتُشترى.

وكانت جميلةُ إذْ تعود الى البيت تعودُ مَحفوفةً بآياتِ الهَناء، ومرتويةً بعذيبِ القول. تُطالع المرآةَ البيضويةَ المؤطَّرةَ بخشبِ الأبنوس اللامع؛ ثم تشرع بنزعِ ملابسَ الخروج وارتداءِ ثوبٍ مُشجَّر شاهدته يوماً معروضاً في أحدِ معارض المدينة فهفت اليه بذائقةِ مَن يُحب الجمالَ ويحتفي بالشَّجَر.. ثوبٌ وجدته يَمنحها خفّة ويضفي عليها طابعَ البساطةِ. تُحرر شعرَها الطويل، الطويل مِن قرّاصةٍ بهيأةِ فَراشةٍ؛ لطالما أحبَت الفراشاتِ، مُتخيلةً انَّها أنفاسُ الله يُطلقُها رهيفةً، حييةً، عذبةً ساعات رضاه على بشرٍ يُحبّون إخوانَهم ويُخلصون في اعمالِهم وافعالِهم... تتمايسُ بطولها الفارع الرشيق بخِفَّةٍ وعذوبةِ راقصات الباليه على ايقاعِ أرضِ الحوش المُبلَّطة ببلاطاتٍ عريضةٍ مُلونةٍ بشبشبٍ مَطّاطي خفيف فتتَّجه الى المغسلةِ لتغسلَ يديها وتبللَّ وجهَها استعداداً لتناول

عشاءً تؤثِرُه خفيفاً، فقد شبِعت من مأدبةِ حكاياتِه وارتوت من نبيذِ أحاديثِه التي لا تُدرك المَلل.

ولقد سعُدَت المرأةُ المؤجِّرةُ لسعادةِ جميلة، رائيةً فيها الفتاةَ المُكلَّلة بغارِ الحَظَ، يُداريها الأبُ مُداراةً لا تراها غيرها حتى في الأحلام... تعودُ اليها ذكرى مستأجراتِ بيتِها مِمَّن كنَّ يأملنَ رجلاً يطرَقَ البابَ ويدخل فينثر على نسائه سواءَ كنَّ زوجاتً أو بناتً أو أخوات طمأنينةَ أمنٍ وسلامٍ تحتاجُه المرأة... تذكُرُ العمّةَ مريم، وحمامةَ، والنساءَ اللائي اعتدنَ المجيء لزيارةٍ سجناءٍ لهنَّ في نقرةِ السلمان.. تذكُرُ نساءً مُغلَّفاتٍ بالغموضِ جِئنَ، فسكنَّ، فارتحلنَ بعدَ أشهر دونَ أنْ يَعرُفَ عنهنَّ سَكنةُ الزقاق شيئاً، ولا هي استطاعت كمؤجِّرةٍ مَعرفةَ مِن أينَ جئنَ، والى أينَ ذَهبنَ.

وتوالت الايامُ وهو يحكي لها، فيما هي تنصتُ له بعظم شوقها الشبابي لحكايات تحمل عذوبة التفاصيل، وأريج الفحوى، وقيمة المدلولات.

كان مأخوذاً برغبتها في الانصات، وتعاليها على الوقت من أجل النهل من غِدران خبرتِه في الحياة وتجارب عاشها فتكرَّست في ذاكرتِه كالحِكَم.. وكانت هي مدفوعَةً بقوَّةِ تَعلُّقه بها ونشدانه التواصل مَعها، وشعورِها أنَّه لا يبغيها تبتعد عنه.. لقد استنتجت بحكمِ نباهتِها أنَّه مُتعلقٌ بها كطفلٍ يتعلق بأذيالِ أمِّه... وكم أسمعَها قصصاً كانت تدرك أنَّها من بُناةِ خيالِه وهيجان دواخلِه

عن أُناسٍ بأعمارٍ كبيرةٍ ذابوا ولَها بفتياتٍ يصغرنَهم عمراً بكثير، تعذبوا من أجلِهُنَّ وذاقوا مراراتٍ من الجزعِ والحرمان... وكانت هي تُهدِّئ أوارَ حزنِه وأساه مُشيرةً إلى أنِّ الهيبةَ التي يتحلّى بها الكبارُ تُضفي نوعاً من المَهابةِ عليهم، وتجعل المقابلَ يُقبِل على صداقتِهم، وقد يتعدّى الى الحبِّ؛ فيطمئنَّ لما يَسمع؛ ويروح يَحكي مُنطلِقاً من فكرةِ أنَّ الحكي المنمَّقَ قد يؤدي دورَه بالتدريجِ مثلَ عِقارٍ طويلِ الأمَدِ في تحقيقِ الشِّفاء.

يَحكي عن أعوامٍ يستدعيها من رفوفِ الذاكرة.. أعوامٌ كانت فيها الاحداثُ من تلك التي لا تُنسى؛ وحقَّ للتاريخ حفرها على ذراعِه مثل وشمٍ لا يزول.

قصَّ عليها مرَّةً قصةَ فتىً كان ولوعاً بالقراءة، مُحبّاً لجمعِ الكتب، شغوفاً باقتناءِ المَجلات. لكن كيف يُشبِع ذلك الولع والحب والشغف إنْ لم يكن ثمَّةَ مالٌ يوظّفُه لشراءِ ضالته؟.. ذلك جعلَه يُمارس فعلَ السرقةِ؛ فيتسلل ليلاً لجيبِ سترةِ أبيه يسرقُ درهماً مرَّةً، ومرَّةً درهمين؛ مُكرِّراً الأمرَ يومياً أو يؤجِّل اختلاسَه فيترك يومين أو ثلاثة لا تمتد يدُه حين يشعر بالرأفةِ على أبيه. حتى إذا جمعَ ما يمكنه من الشراءِ أخذَ المالَ وتوجَّه الى المكتبةِ الوحيدةِ في مدينته ليشتري كتاباً سَحرَهُ، أو مجلةً اثارت اهتمامَه أو صحيفةً قرأ فيها موضوعاً يُغذّي نزوعه.

وكان الأبُ فيما يبدو يعرف ذلك؛ وقد اكتشفه أكثرَ من مرَّةٍ؛

لكنّه كان يعفو في سرّه وإنْ كان يُصرِّح بين الحينِ والحين على مسامعَ الأسرةِ جميعاً إنَّ السرقةَ فعلٌ مُحرَّمٌ، وإنَّ السارق لا بدَّ أنْ يقع يوماً في فخِّ الاكتشاف.. لكنَّ الأبَ كان يستدرك بعدَ هذا التحذير بقولِه: إلّا مَن يسرقَ لشراءِ كتابٍ مَثلاً أو مَجلةٍ قَصدَ القراءةِ والتعلُّمِ.

ولقد شكَّ الفتى في ذاته بين اكتشافِ أبيه لسرقته أو اعتبار كَلامِ الأبِ كلاماً عاماً قَصْدَ التنبيه والنصيحة. ولم يُدرك مَعرفةَ أبيه لسرقته إلا عندما كبُرَ ووجدَ الأبُ أنَّ عليه افشاءَ سرِّ معرفتِه لابنه. فقد كان صاحبُ المكتبةِ الوحيدة في المدينة يلتقيه فيشيد بالفتى ويُعلِمُه باعتياد مَجيئه كل أسبوع أو أسبوعين لشراء ما يُستَجَدُّ من الكتب والمجلات... ذلك الشراء الذي خلق منه كاتباً آل على نفسه إلّا أنْ يذكر هذا الأمرَ فلا يتركه بين طيّاتِ الإغفال؛ ويُفشي عَظمةَ آباءٍ مُشبَّعين بالحكمة والدراية.

وكانت جميلةُ تُنصت لكلامه فتدرك أنَّ صاحبَ هذه الحكاية وفحواها هو الآن صارَ مثالاً لها، وفناراً مضيئاً في مشروع رحلتها الطويلة في بَحر الثقافةِ ومحيطاتِ المَعرفة.

***

حدِّثُها يوماً عن "الحب" وما تجرُّه هذه المفردة المُلغمة ببارودِ المفاجآت عن مآسي تحفرُ وجودَها على جَبهةِ التاريخ فلا يمكن له بعد ذلك مَحوها:

"يحدثُ كثيراً أنْ يقع اثنان في حبٍّ دفينٍ وتوافقٍ انساني يأخذ طابعَ الكتمان جرَاء أعرافٍ تحرِّم ذلكَ الحب، وتعدهُ تشهيراً بعائلةِ الفتاة وخروج الفتى عن اللياقةِ الأخلاقية والالتزام المجتمعي. فالذي يحصلُ بين الفتى والفتاة لا يعدّونه توافقاً انسانياً، وتآلفاً بين روحين التقيا فأحسنَ ظّنَّ أحدِهما بالآخر. إنّما يحسبونه تَعديّاً أُسريّاً يتعالى الى مَرتبةِ الاطاحةِ بهيبة عشيرةٍ تنتمي اليها الفتاة... وكثيراً ما حدثت التباساتٌ وتأويلاتٌ خارجَ اطارِ نصِّ العلاقةِ الانسانية المتمثلة بالعاطفةِ المتبادلةِ أدَّت إلى فجائعَ سيكشف التاريخُ في قادماتِ أعوامه أنَّ ما حَدثَ تجسَّد بفعلِ سوءِ ظنٍّ أو تأويلٍ خاطىء.

وافصحت جميلةُ عن شوقِها الصميمي لسماعِ الحكاية، فحثّته على الاسراع.

ارتعاشُ أصابعِها واختلاجُ شفتيها كشفا له أنَّها في أعلى تخومِ الرغبة في الانصات؛ وسمعَها تُتمتم: "اختصرْ، أرجوك.. اختصر."

ولم يكن يريدُ الاختصار.. إنّما لإعطاءِ مُقدِّماتٍ تَشي بضرورةِ الافصاح للمتلقّي السامع أو القارىء بتمهيدات وتوضيحات قبل الَشروع بتقديمِ أيةِ حكايةٍ أو حادثة. فبدونِ التمهيدِ يحدثُ الارباكُ في ذهنيةِ المتلقي، ويغدو قصُّ الحكايةِ أو الحادثةِ اقحاماً يُربِك الذائقة. وبالتالي تضيع الكثير من المعاني والشفرات من فحوى

القص... ومع هذا فقد اختصرَ ما أرادَ قوله؛ فدخلَ في قلبِ الحكاية وافصحَ عن حادثةٍ جَرَت قبل قرونٍ لرجلٍ كانَ يملك مَعملاً لصناعةِ الاخمرة والقفاطين أحبَّ فتاةً تَعمل عندَه؛ والفتاة كانت احبَّته سرّاً. ولم يدرِ الرَّجل أنَّ هناكَ شابّاً بعمرِها، قريباً لها، يسعى لكسبِ قلبِها والاقتران بها؛ لا سيما وقد تربيا سويّاً في زقاقٍ واحد من أزقَّةِ تلك المدينة البعيدة.

"إنَّ القدرَ لحاكمٌ جبّار." سمعته يقول وقد هزَّ رأسَّه تَملمُلاً. " إذا حضرَ ألغى الكثيرَ من انسيابيةِ الحياة. وإنَّ الاقدارَ مُجتمعةً لَبوصلةٌ مُتحكِّمةٌ فاعلةٌ في تغييرِ المسارات.. إننا أسرى أقدارِنا."

"كيف؟! كيف.. أسرع!"

"وكان القَدَرُ سريعاً في حُكمِه؛ فقد قتلَ ذلك الشاب صديقيه ظنًّا منه أنَّهما يراودان فتاته ويعرفان عنها من خلال حديثهما معه أكثر مِمّا يعرفه هو عن قريبته التي ولعَ بها وأحبَّها.. قتلَهما في غِلٍّ، في ليلةٍ كان الثلاثةُ يتبادلون حتى اقترابِ الصباح حديثَ الأُنس يثملهم ويعتعتهم مانحُ اللذاذات، ولم يَخطُر في بالِ الصديقين ما خَطَّط لهما، وما سينفذُه."

انقبض قلبُ جميلة لِمْا سمِعت؛ وأسِفت على حثّها له في الاسراع... كانت ظنَّت الحكايةَ تأخذُ منحىَ الحبِّ المتبادلِ والوفاءِ العميم بين شابٍّ أحبَّ قريبته، وشابَّة وجدت فيه كقريبٍ أفضلَ قَرين لها فتركَت رجلَ المَعمل؛ ونهاية وضعتهما على مَحفّات

سعادةٍ لا يدركها الآهما.

قرأ الحزنَ في عينيها. وأدركَ أنَّه جرحَها؛ لكنّه قالَ في سرِّه. إنَّ هـذا لـيس بجديـد. فالتـاريخُ ملـيءٌ بمئـاتٍ بـل آلافِ الحكايـات المشابهة لهذه.

مرَّر كفّه بحنوٍّ على رأسِها، واستمر:

"على أيـةِ حال ارتكبَ المُحبُّ الشكّاك فعلته ثم حَملَ جثَّتيهما فـي عربـةٍ ليضـع كلَّ واحـدةٍ امـامَ بـاب منزلـه.. وتقدَّم الـى والـي المدينةِ يُعلِمه بما ارتكب؛ فحقَ عليه الاعدامُ، وأُعدِم أمامَ المَلأ... ولـم يمـرُّ عـامٌ أو عامـان حتـى تـزوَّج مـديرُ المعمـلِ فتاتَـه التـي أحبته."

تلكَ النهايةِ المفارقة صَدمت جَميلةَ أيّما صدمة.

ولولا أنَّها جاءت من فَمٍ صدوقٍ لحسِبتها من حِكاياتِ الجدّات المشـبعات بالخرافـة أو قصـص يقصَّـها أولئـك الـذين يستأنسـون للنهايـات التراجيديـة التـي تضـع اوزارَهـا عنـد بحـرٍ مـن دمـاءٍ، وشواطىء نفوسٍ صرعى، وفضاءٍ يضجُّ بالتأوهات.

***

في لقاء اليوم التالي ولكي ينتشلها من بحرِ حزنٍ سقطت فيه بالأمس ولكي يُخفّف أثرَ اللوعةِ من قلبِها استهلَّ حِكايةً أخرى قال أنَّها حَدثت له يوماً. ذلك جعلها تنصت باهتمامٍ طالما أنَّها تخصّه هو لا غيره.

توقَّف بمواجهة شجرةٍ كالبتوس كبيرةٍ وعارمة تصبغ هامتَها الشمسُ بصفرةٍ تَشي بهيمنةِ النهار، ولحظات الغروبِ لمّا تزل بعيدةً. طالعَ الشجرةَ أولاً، ثم تركَ نظراتِه تشرَّدَ الى الافقِ البعيد، حيث حافات البساتين تعرضُ دكنتَها الثقيلة، ثم قال:

"كنَّا قبل أربعين عاماً نأتي الى هنا. ننزعُ ثيابَنا ونكوّمُها عند جذعِ هذه الشجرة التي لم تكن بهذه العظمة وهذا الهول.. وكنَّا نَرمي بأجسامِنا الصغيرةِ في دَفقِ النهر الذي ترينه الآن أشبه بساقيةٍ. كان أهلونا يُحذِّروننا مِن جنونِ الماء الذي كثيراً ما كان يوشك على تكسيرِ الضفاف ليُحدِث فيضاناً تلتاعُ لحدوثه النفوسُ، ويهبُّ الناسُ كالصَّرعى يستغيثونَ ويتنادون للجمِ جماحِه.

لفتَ انتباهنا مرَّة شيخاً عجوزاً؛ وتكررَّت رؤيتنا له مرات. قالَ عنه أهلنا انّه رجلٌ مجنون، ترونه اليوم هنا، وبعد اسبوع أو شهر في مكانٍ آخر. يرمي صنّارته وينتظر. وعندما تَعلَقُ بها سمكةٌ ويستخرجها يقبضُ عليها بيده ثم يطالعها ويحدّق في عينيها؛ ما يلبث أن ينزع من فمِها الصنارة ويعيدها برويّة وانسيابيةٍ الى النهر... ومَن يَفعل مثلَ هكذا الّا مجنون.

فعلُه هذا اثار فينا الفضول فصرنا ندنو منه ونبثّه نظرات عطف واحترام جعلته يبتسم لنا، حتى اذا تسللت الينا روحُ الطمأنينة صرنا نتحلَّق حولَه فينهض يلفُّ الخيطَ والصنارة ويضعهما في جيبِ سترته وينهض طالبا منّا مصاحبته. فنروحُ

نلحقه. يرتقي السلَّم المرمري الصاعدَ الى رصيفِ الشارع المُترف حيث شجرة الكالبتوس. يجلس على حَجَرٍ متعال ويتكئ بظهره على جذعِها، ثم يأخذنا ننعُمُ بالهواء الرطب ونحلِّق على اجنحةِ انسامٍ يأتي بها الفضاءُ الجميل... يروحُ يَحكي حكايةً من هنا وأخرى من هناك؛ لكنَّه يُدرك رغبتنا الشغيفةَ والعميقةَ والساحقةَ بمعرفةِ سرِّ أمرِه، كإجابةٍ على سؤالِ حيرتِنا بإعادةِ أيَّةِ سَمكةٍ يَصطادها الى الماءِ وهي التي وظَّفَها الله رزقاً له، ويفترض اعلانَ سرورِه لأنَّه حقَّقَ فعلاً جاءَ لأجلِه .

"أينما ذهبتُ نُظِرَ لفعلتي هذه على أنَّني مَجنون؛ ولعلَّ هذا الأمر راودَكم... الجنون الذي أنا فيه لا يَعلمُه إلا ربُّ السماءِ وأنا؛ وهي – ويتوقف قليلاً، ترمشُ جفونُه وتختلجُ شفتاه يصاحبهما ارتعاشُ كفَّيه – هي التي تعيشُ الآن في أعماقِ اليَم."

يمدُّ كفَّه الى جيبِ سترته؛ يستخرجُ علبةَ سجائر يُلقمُ شفتيه بواحدة، ثم يغذّيها بذُبالةِ نارٍ زرقاء من ولّاعةٌ أوشكَ غازُ اشتعالِها على النضوب.. يسحبُ نَفَساً عميقاً يعقبُه اطلاقُ زفرةِ دخانٍ أبيض من رئتين مُجهدَتين قبل أنْ يواصل:

"إنَّ السعادةَ لقصيرةِ العمرِ حينَ تزورُ الانسانَ؛ وإنَّ المتعةَ لخاطفةٍ كالنيزك.. وإنّي لعلى شَدهِ في حياتي وبحثٍ لا ينتهي."

يُطالعُ اهتماماتِنا بِما يقول.. وإذْ يحصدُ الإبهام تُمطِرهُ عيونُنا، يدخلُ صميمَ الحديث:

"أحبَّتني، وكانت في ما تكتبُه لي وتقولُ لَهوَ الاخلاصُ بعينه؛ وكان وفاؤها نهراً يجري بلا نضوب.. أحبَّتني؛ فلم تكَد تُدرك قطفَ ثمارِ حبّها منّي حتى جاءني مَن يقول إنَّ المكيدةَ بادئةٌ بِدء الدهاء، وأنَّ الوقايةَ من حدثٍ جَللٍ خيرٌ من وقوعِه وتَلقّي تبِعاته.. فكنْ على ما أنتَ عليه وخُذْ المحطّات القادمة، وهذا القطارُ أمامَك فارتقي درجاتِ احدى قاطراته وغُبْ."

يُكرّرُ سحبَ الدخانِ من قلبِ سيجارته بدفعتين يَملأ بهما الرئتين ثم تنفثانه، ويعود:

"وارتقيتُ الدرجات، وأخذَني القطارُ بعيداً.. تركتُ عَشرات المحطات فلم تأخذْ بي قدمي إلى واحدةٍ تتمثل المُخلِّص أو المُحقِّق لملحَمةِ البعدِ والافتراق.. ووجدتني يوماً أنظر من النافذة فأرى جبلاً يحتضنُ ثلجاً يبرق، وقالت السماعة التي تعلن اسماء المحطات اننا في لايبزك، مدينة ألمانية. وفي يدي قصاصةُ ورقٍ اوصلتني الى صديقٍ هاتفني مرَّةً في أولى وصوله الى المدينة قبل خمسة عشر عاماً... طلبتُ من أحد المارّة أنْ يتَّصل برقم هاتفٍ احتوته الورقة.. فعلَ الرجلُ وسلَّمني السماعة اذ سمع كلمة "هالو".. هتفتُ من لهفتي مُسلِّما، واخبرته أنني في لايبزك وجئتُ وفقَ رغبتِه؛ وإنْ تأخرت كل تلك الأعوام.... قال لا عليك.. اختر فندقاً قريباً تسكنُ فيه واتصل بي حتى آتيك... فعلتُ ذلك واتصلت.. وجاءَ صوتُه بنفس تلك النغمة العذبة، وذلك الود..

وقلتُ هكذا الاصدقاء وإلّا فلا...

ولـم تمـر ثـلاثُ سـاعات حتـى وجـدتني ارتمـي بـين ذراعيـه الحنونين الصادقين، ووجدتُه يُرحِب ويقول لقد تأخرت كثيراً، لقد قضيتَ أعواماً ثمينة من عمرِك في مدِننا البائسة هنالك وفاتك الجمالُ الذي تنعُم بها بلدان الشمال هذه "".. تلك اللحظة قدَّمتُ اعذاري، وضحِك عندما اخبرته أنَّ حضوري حصلَ هروباً من فتاةٍ احبَّتني لكنَّ الاصدقاءَ رموني برصاصِ التحذير وتفضيل الابتعاد. فابتعدتُ.. وها أنتَ تراني أمامَك.

"وماذا توَد الآن.. أنْ تعيش هنا وتعمل أم تواصل الرحيل الى محطات أخرى؟"

"لا اعتقد أنَّ المحطات التالية تلوح لي بكفِّ الاغراء.. أُريدُ العيشَ هنا."

"أذاً سنعمل لك اوراقَ اقامةٍ، وسأسعى إلى ايجاد عملٍ لكَ ولو مؤقتاً."

والتحقتُ بصاحبِ فرنٍ عراقي يصنع الخبزَ، ويوكل لي ولثلاثة من العاملين العراقيين نقله الى عناوين ثابتة وأخرى تُستَجد مع الايام."

استمر الحال لأكثر من عام؛ إلى أنْ فوجئت مرَّةً برسالةٍ تأتيني بخطِّ يدٍّ انثوي أعرفه... فتحتُ الظرف الازرق وشرعت اقرأ ما في الورقة الزرقاء وأدخلُ ميدانَ حروفِها وهي تسكبُها لوعةً، مُعلنةً عن

استمرارِ وفائِها لي، واخلاصِها الذي لا ينضُب حتى لو وصلتَ الى أبعد اصقاعِ الارض... وقد ذَيلَت رسالتَها بجملةٍ: سأنتظرُك إلى آخر يومٍ من عمري.. لا أحد غيرُك له حقّ امتلاكي."

يتفجَّر الدمعُ من عينيه فجأةً ويروحُ يَنشج.. يُظهر منديلاً يتمخَّط فيه؛ ثم يعقبه بسيجارةٍ أخرى يدفعها بين شفتين مرتعشتين وأصابع لا قدرة لها على التشبُّث بالولاعة واطلاقِ ذُبالةِ النارِ لتُلقِم هامةِ السيجارةِ بما يخفِّف من احتدامِ صدرِه ودواخله.. ينظر أحدُنا إلى الآخر فيعترينا شعورُ الندم لأنَّنا تسبّبنا بإيلامه عبرَ استثارتِنا لذكرياته.

ينظر مقبلُ الامين إلى جميلةَ فيراها تضغط أصابعَ كفيها كأنَّها تضغطُ شيئاً داخلهما بينما عيناها تطفحان بدمعٍ يوشك على التدفّق على وجنتيها.. وأذْ شاهدته يطالعها لم تتمالك نفسها فاجهشت بالبكاء وجعلت تمسح دموعَها بمنديلٍ ورقي شفاف سرعان ما امتلأ فرمته لتستخرجَ من حقيبةِ يدها مجموعةَ اوراق دعتها تتولى تلقّي الدمع المدرار.

قالت واصل أرجوك.. لا قدرة لي على الانتظار.. ماذا حدثَ، بعد تلقِّي الرسالة؟

"مزَّقَ الرسالةَ ورمى بها الى سلَّةِ قمامةٍ قريبةٍ وهو يستذكِّر كلماتِ تحذير سمعها من أصدقاءٍ رأى فيهم الناصحون... وعادَ الى راحةِ البال بعد ما قضى أياماً يفكِّر مندهِشاً كيف توصَّلَت الى

عنوانِه، ولماذا كتَبَت اليه بهذه الجرأة، ولماذا تخبره انّها تنتظره.

ولم يكَد يمرُّ شهرٌ حتى وجدَ من بين الرسائل التي تصله رسالةً منها:"انتظرك.. وسأنتظرك.. شجرةُ وفائي لكَ تكبُر يوماً بعد يوم.. وعندما تعود ستجدها وصلت عنانَ السماء.. متى تعود؟."

ومن جديد راحت أصابعُه تتولّى تمزيقَ الورقةِ جاعلةً مآلَها نثاراً في صندوقِ القُمامة."

أمَّا صندوقُ قلبِها فلم يفرغ ببُعدِه وعدم ردِّه عليها إنَّما امتلأ عَزماً وتدفَّقَ عناداً، ثمَ تراكمَ اصراراً على التواصل معه وإنْ مِن جانبٍ واحد... تُفشي سرَّها لصديقةٍ تتبادل وايّاها الاعتزازَ والثقة، فلم تكن نصيحةُ الصديقةِ مَرَّةً وثانيةً وثالثة الا احتمال انشغالِه في العمل أو عدم وصولِ رسالتِها اليه. فتجيب بلغةِ العِناد والاصرار:"تصلني الأخبار أنّه كان يستلم رسائلي ويقرؤها، مثلما عرفتُ أنَّه يتولّى عملاً لا يمنعه من الكتابةِ إليَّ."

ويوماً غضبت منها الصديقةُ الواقعيةُ في رؤاها فنصحتها بإيقافِ ارسال الرسائل وابعاد فكرةِ استعادتِه بالرجوع اليها أو طلبها بالقدوم اليه. وراكمت النصيحةَ بقولِها أنَّه لا يحبُّك فلماذا تحبَّينَه... تلك الجملةُ جَرحَت قلبَها، واشعرتها أنَّ الصديقةَ طَعنتها في مَقتلٍ، فتدفَّقت تبكي بحرقةٍ وهي تردِّد:" كيف اتركه؟.. أنت لا تعرفينه.. لا تعرفين أنَّه لم يجرحني يوماً، ولم يُغيظني حتى.. لم أرَ منه الا الودَّ مَغموساً بعَسلِ حنوّه عليَّ واحترامه لي.. لو التقيته

مرّة لوقفتِ الى جانبي ولكتبتِ الرسائلَ بنفسِك اليه تُعلمينه بجراحي وآلامي وشعوري العظيم بفقده."

ولطالما وقعت الصديقةُ في بحيرةِ الشَّده لما ستقول؛ ولطالما اقترحت عليها نسيانه شهراً أو شهرين، تاركةً الأمر للقدر. فكانت ترد بقولِها انَّه لا يتحمَّل قطيعتي.. لا يشعر بإنسانيته إلا اذا قرأ ما أكتبُ اليه.

ولم تفقه سرَّ هروبِه منها، وانه لم يَعُد يفكِّر بها، وما هروبه منها إلّا فكرة ابتعادٍ نهائية فكَّر بها وطبَّقها.

لم تكن معه إلا تلك المخلوقة النقيّة المَجبولة على الوفاء.. على عكسِ الكثيرات مِن المتشدِّقات بالغَنَجِ؛ اللعوبات، القافزات على حَبلِ الخيانة ضاربات عرض اللامبالاة نواميسَ الاخلاصِ المتمسِّكُ بها المحبّون الأُصلاء، فكثيراً ما خانت النساء عشّاقاً أحبوهنَّ بصدق فرحنَ تحت سطوةِ الخيانةِ المتجذِّرة في نفوسهن يطعننَّهم بخناجر الغدرِ والخديعة.

"وظلَّت رسائلُها تتوالى؛ وبقي هو يقرؤها ويرمي بها مُمَّزقة الى سلَّة القُمامة أو يرميها نثاراً في الهواء.

وظلَت الأيامُ تمر... وتمر...

وفي عامٍ ضاقت به سبلُ العيش ففكّر بالعودةِ اليها.

وعاد...

وبعودته تلقى خبراً قديماً.. خبرٌ تهجَّسَ له قبلَ عامين عندما

انقطعت رسائلُها عنه."

وإذ سألَ عنها سؤالَ اللامبالاة قيلَ له أنَّها رمَت بنفسِها في النهر في ليلةٍ كانت هوجاءَ ممطرةً وعواصف تضربُ السطوحَ والسقوفَ الرخوةَ للمدينة. ولم يكتشف الأهلُ والمعارف سوى ملابس تركتها وورقة كتبت عليها: "ذاهبة لألتقيه.."، ولم يفك الناسُ الذين شاهدوا الكلام المُكثَّف شفرةَ المتوجهةِ اليه.. تدفَّقت الألسن تتناقل اسماءً وتخمِّن أسماء.. منهم من حَسبِها تشير الى النهر نفسه، ومنهم مَن خمَّن أنَّها تقصد لقاءَ الرَّب فهي تجد في النهر أقربَ محطةٍ توصلها اليه، ومنهم مَن شكَّك بانّها تحبُّ شخصاً غدر بها ولم يفِ بعهدٍ قطعه لها، فوجدت في النهر وسيلةً للتطهُّر من فعلِ فاحشةٍ ارتكبتها، ومنهم مَن قال أنها أرادت ارباكَ الجميع بعد موتِها فكتبت هذه الجملة المُلغَّزة."

وتداول بعضُ من الناسُ اعتقاد أنَّها استحالت سَمكةٌ في النهر تبحثُ عن شيءٍ ضاع منها ولم تجد وسيلةً تصل اليه الا من خلال النهر.

وها هو مَن يجلس امامَكم يبحثُ عن السمكة، لعلَّها تراه فتعود تلك التي احبته وبعثت له عشرات الرسائل وكان جاحِداً مُتكبِّراً مُتجبِّراً... إنَّه الآن يَجترُّ شيخوختَه عند الماء وليس بيدِه غيرُ صنارة يستهلك من خلالِها أيامه وينتظر ساعةَ خلاصٍ للوصول اليها.. وكان مِن الأولى الوصول اليها بأنْ يقذف بنفسه الى الماء

للبحث عنها ولقائها، لكنَّه يا اولاد كان، وما زال جباناً، جباناً، جبان."

"وكان الجفنان الهابطان المجعَّدان اللذان تشوبهما صبغةٌ سوداء يهبطان بتأثيرِ دمعٍ شكَل ثقلاً وانتظر لحظةَ التدفّق والهطول. وكانت روحُه تجوبُ المدنَ التي ضاع فيها، وتلقفته المحطاتُ، ورمت به الأسفارُ، وأقضَّت استقرارَه البطالةُ، وسرقت هناءه لحظاتُ الشعور بالضياع، واثقلت عليه غيومُ الاحساسِ بتأنيبِ الضمير. وأوقعت به فتياتُ اليأسِ لحملِه الى محفَّات الانتحار.

لِكّم فكَّر بالانتحار، يا أولاد.

ودمعت عيونُ الاولادِ المُتحلِّقين حوله؛، ولفَّتهم حيرةٌ ضَربت اطنابَها بين نفوسِهم وجعلتهم يرتبكون.

إنّهُ الندمُ القاهرُ يا جميلة، قصيدةُ الحزنِ الدائم، والجرحُ الفاغرُ الذي لا يُشفى، والحادثةُ المهولةُ التي لا قدرة للتاريخِ على اغفالِها.

إنّه البكاءُ الذي لا ينقطع حتى وإنْ نضُبت الدموعُ، وأمَحلت المآقي؛ حتى وإنْ قال أنا عائدٌ فافعلي بي ما شئتِ."

لكنَّ جميلة هرعت باكيةً تبتعد... ومن ناحيتِه مَنحَها الوقتَ لتسترجِع اتزانَها بعدما شاهدَها توشك على الانهيار.

أخذَ بيدِها واجلَسَها على مصطبةٍ قريبةٍ، وجلسَ الى جانبِها لبعض الوقت قبلَ أنْ ينهضَ ويذهبَ للإتيان بقارورتي مشروبٌ

غـازي يرطّـب بلعومهـا الـذي ظنَّـهُ تيـبَّس ولسـانَها الـذي حسـبَهُ تخشَب، ولامَ نفسه لأنه تسبَّب لها بكلِّ الدمعِ المدرارِ الذي سكبته وهي تجهش كأنَّها هي ما حصل لها وما اتخذته من قرار، وما توقعتـه أنْ سيأتي بعد أيام من غرقِها.. أيام ليس غير؛ ليغرق ويلتقيها هناك في أعماقِ اليَم.

أرادت أنْ تقول:"زُد.. فالليلُ طويلٌ، وما تقولُ لا يُشبِع روحي الجائعة."

لكنَّها تراجعت عندما سمعته يقول: "لنَعُد.".

فوافقت مشيئته: "نَعم، لنَعُد."

عنـدما وصـلا عنـد مـدخل زقـاق بيـتِ العَمَّـة همسـت بعينـين تتضرعان وشفتين تشكران:"عُد مع السلامة.".

لوَّح لها بكفٍّ دافئة كانت تقبض على منديلٍ يمسح بـه عرقَ جبهته.

لـم تكـن تَسـعَد الا معـه؛ ومـا ذرفـت يومـاً دمعـاً الا دمـع هنـاءِ صحبةٍ لا تستعذب غيرها... وكان سكنةُ الزقاق يبصرونها تخطو باتجـاه بيتهـا وقـد عجَّـت عيناهـا بـرذاذ الحبـور ومطـر السـعادة؛ فيقولون بشـيء من الهنـاء: بنتٌ تُحبُّ والدَها فـلا ترى فيـه إلاّ أباً صَديقاً. وما أسعدَ البناتُ عندما يكونُ آباؤهنَّ اصدقاءَهُن.

فـي البيـت تـروحُ مسرعةً تمسكُ القلـمَ وتكتـبُ لابنـةِ خالتهـا مـا احتشدَ من صورٍ وما تهافتَت من كلمات. لا تريد لها أنْ تضيع..

تريد أنْ تكتبها جميعاً؛ أنْ تُطلِع ابنةَ الخالة على مشاعرٍ جيّاشةٍ ما زالت ساخنةً لم تبرد، ولا تريد لها أنْ تبرد.. إنَّ المشاعرَ حينَ تنسكبُ ويتلقَّفها السامعُ بحرارتِها لأشد وقعاً على النفس مما لو بردت وأُعيدَ التعبير عنها في ما بعد.

تُحدِّثُها عن حكاياتٍ قصَّها، وحِكمٍ قالَها، وتعابيرَ شعريةٍ صاغَها اثناءَ الحديث... " إنه يُمطِر فضّةَ القول وذهبَ المَعانى.. إنّه حَكّاءٌ ماهرٌ ومُنصتٌ نبيه... أثمَلُ من نبيذِ قولِه، وأهيمُ من أريجِ رؤاه.. لا أشبعُ من مائدةِ ما يُفضيه اثناءَ سيرِنا أو جلوسِنا؛ ولا أرتوي من جَدولِ عَسلِ خلاياه الممتلئة دوماً بما تستعذبه الروحُ وتتلذَّذ له الذائقة... خزينُ حكاياتٍ أراه، ونهرُ احاديثٍ لا تنتهي يتمثّلُ لي.. لا يدنو المَللُ من دفيق قصّه؛ ولا تتسلَّلُ الرتابةُ يوماً لانسيابيةِ ما يقول.. أنا مُتيمةٌ، ولِعةٌ، ولهى.. لا يمرُّ يومٌ إلا ويسقيني مِن كأسِ سحره، ويُنيمُني على لذاذةٍ مائيةٍ غامرةٍ من عَذيبِ القول."

وتهيمُ ابنةُ الخالة بما تقوله جميلة عنه، فترى في الكلمات بَوحاً يرقى الى الشِّعرِ؛ وتروح تُطلع صديقةً لها على الرسالةِ المُشبَّعةِ بالرومانس، المليئةِ ببوحٍ لا تقوله الا فتاةٌ اغرقَها الولهُ وغمرت طيبَ رؤاها الكلماتُ العِذاب؛ وتروحُ الصديقةُ هي الأخرى تهيمُ بمفرداتِ الوله التي احتوتها الرسالةُ تقرأها لعديد المرات فتشعر أنَّها هي التي تكتب؛ وكم تمنَّت أنْ تحظى بمَن يُقدِّم هذا الثراء

الروحي لها. تقول لابنة الخالة متسائلة: كيف لفتاةٍ مثل جميلة أنْ تتصرَّف بما يجعلها تنالَ حظوةً بهذه العظمة من رجلٍ ممتلىء معرفة ولا وقت لديه ليصرفه عليها؟!

وتوافقها ابنة الخالة في السؤال: كيف استطاعت جميلة الوصولَ الى عالمِ ذلك الذي تصوَّرته الكثيرُ من النساءِ عَصيّاً على معشَرهن؟

لذلك قرَّرت التوجّه اليها في رسالةٍ تاليةٍ مقرونةً بتساؤل الصديقة أيضاً على أملِ حيازةِ إجابةٍ مُرضيةٍ، خاليةٍ من المُبالغة.

ولم يمضِ غيرُ أسبوعٍ حتى جاءَ الردُّ بغزيرِ البوح، ومَطرِ الشوق.

(٣)

في دَوحةِ رأسِهِ أسئِلَةٌ
تتبنّى أرضاً مِن قَلَقٍ يَتناسل
رَمْلٌ مُتفاقِمٌ يَصنعُ عاصِفةً
ويَقولُ أعاصيرَ.

وأشعل سيجاراً ثانياً.. إنَّها المرةُ الأولى التي يشعرُ بحاجةٍ الى التدخين بهذه الكثافةِ وهذا التواصل.. اشعلَ السيجار وامتص نَفَساً طويلاً، سرعان ما نفثه ليأخذَ نَفَساً آخر وينفثه.. ذلك أحدثَ موجةَ دخانٍ أبيض، صاحَبَه توهجُ جمرةٍ صغيرةٍ أخذت على عاتقِها استمرارَ الدخان المُشبَّع بالرائحةِ الفاغمة... مَن يَقدِر على تجاوزِ الألم حين يتقدَّم الشَّقاء؟.. مَن يوقِف سيلَ الحِمَمِ آن يتفجَّر البركانُ وتغدو الدواخلُ مراجِلَ لا تنتهي؟. يتراكمُ لونُ الرمادِ أمامَ زحفِ الأمل فيكبَحُه. يهبطُ ثقلُ الدخانِ يرسم أيقونةَ العَذابِ فينبري، بعدَ قراءةِ كلِّ مَقطَعٍ أو فقرةٍ ينتهي من قراءتِها، يَسحَبُ نَفَساً؛ لكأنَّه يَستدعي الارتياحَ، ويُعلِن اللّذاذةَ تجاوزاً على الكَدَر... إنَّ الذائقةَ إذا ارتضت واستعذبت صنعَت في النفسِ بهجةً تملأ الكيانَ الانساني برمَّته.. وهو لهذا صارَ يشعُر أنَّ ما يقرأ نابعٌ من قرارِ الروح. يرى في المقالةِ التي نشرَتها تواصلاً معَ ما كانَ يكتب.. إنَّ تأثيرَ غناه اللغوي، واختيارَ مواضيع يجد فيها دافعاً

يلاحقه القراء، ويتتبعُه التلاميذُ والمريدون يُشعرونَه بأنّه مؤثرٌ؛ وإنَّ ما تركَ من مؤلَّفاتٍ للقراء لهيَ بصمتُه على صَفحةٍ من صفحاتِ تاريخِ الانسانية الذي يبقى هوَ، في حين ترحلُ الاجيالُ فتعقبُها أجيالٌ وأجيال.. لفتَ انتباهَه اتخاذها مَنحى الفلسفةِ في تفسيرِ الكثير من ظواهر تجد لها ترابطاً مع بُعدِها الأدبي واللغوي.. تُكثِر من اقتباسات تستلُّها من بحوثٍ صنعها فلاسفةٌ دخلوا ميادينَ النقاشِ والجدلِ، واحدثوا انعطافاتٍ حادّةً في مَسار البشرية... لقد اكتشفَ في مضمارِ تعرفه بها أنَّ لها مَيلاً واضحاً لهذا الفرع من نهرِ المعرفة؛ وكثيراً ما اباحت له بما كانت تُسمّيه " الجهلُ المؤسَّس"، ذلك الذي تُكرِّسُه المؤسساتُ التربويةُ التي لا تُغذي الطلبة بغيرِ الجمودِ الفكري، واعاقةِ حركةِ العقل من خِلالِ مناهج بائسة، عديمةِ الجدوى، وطرقِ تدريسٍ تنأى عن اثارةِ روح البحث العلمي والموضوعي الرصينين.

ورفعَ بصرَه الى سقفِ الصالة يتابع دخاناً حسبه جملةً من أنفاسه تعلو لتمثِّل روحَه.

كانت كلماتُ جميلة تُفعِمُه بالزهوِ مع كلِّ جملةٍ أو فقرةٍ يرسو عندها.. حتى اذا انتهى منها خلُصَ إلى نتيجةٍ مؤداها أنها كاتبةٌ كرَّسَت بصمتَها على ساحةِ التدوين الانساني، وأنَّ عليه تخفيفَ أوارِ احتدامِ غيظِه عليها لأنَّها تركته ورحلت دون أنْ تخبره بوجهِتِها.

واربَ ذائقته مقرونة بالعينين اللتين تفرَّستا بالكرّاسة التي عادةً ما يتركها مفتوحةً ليواصل تدوينَ ذكرياته معها ورؤاه في ما يرى، ويرصد، ويعتقد؛ خصوصاً وهو وحيدٌ لا أحد غيره يمكنه تغييرَ طقسِه اليومي.. وحتى حين كانت العاملة البنغالية تخدم البيت تترك ما على المنضدة دون حراك. لقد أعلمها أنَّ تحريكَ وتغييرَ الأشياء عن مكانها قد يُنسيه ما يريد كتابتَه؛ فالكتَّابُ يَسقطون في حَومةِ الارتباكِ والقلق لو حدث ما يُربِك نظامَهم الذهني من فوضى قد لا يحسبها المُسبب عاملَ تغييرِ ناموسٍ أو حدوثِ خَلخَلة.

لقد غدا مُرتبِكاً وقلِقاً منذ أنْ رحلت جميلة وتركت البيتَ مُغلقاً ولم تُعلِم أحداً بوجهتِها، مع أنَّه خمَّن عودتَها الى أهلِها، فلها صلةٌ عميقةٌ ووطيدةٌ مع ابنةِ خالة لها شهدَها تبعث اليها رسائلَ باستمرار؛ وبعض الأحيان تبعث برسائلَ اخرى الى صديقةِ ابنةِ الخالة.

يقرأ ما شكّل فقرة اولى في الصفحتين المشرعتين التي كتبها قبل يومين:

الصفحة الثانية والعشرون:

((من بين جمع المنصتين القادمين من شوارع اللهفةِ لنهل ما يمكن نهله من المعرفة كانت هي تجنِّد حواسَّها، دافعةً بالعينين تتولَّيان مُهمةَ سَحب الكلام وتوجيهه الى مسمعِها. كلامٌ تَحسبه

مادةً غزيرةً فيه جدّة وعدم سماع من قبل.. كانت تأتي بحقيبةٍ تسندها على كتفِها مُثقلةً بالكتبِ؛ ولم تترك فرصةً تتوفَّر بين الدروس الّا وانتحت جانباً على مِصطبةٍ تلتهمُ أسطرَ ما بين كفّيها من كِتابٍ أو مَجلة.

تدوِّن في كرّاس صغيرٍ لا يفارق جيبَ سترتِها ما تسمعه يتساقط من أفواهِ زملائِها وزميلاتها من أسماءٍ لعظماء أثروا البشريةَ بعلمِهم وعاندوا القدرَ في محاولةٍ لَي اذرعِهم واسقاطهم في حُفرِ الفَشلِ والتقهقرِ وحتى التواري فانتصروا عليه؛ وتركوا أسماءَهم خالدةً، وجعلوا من أفعالِهم نظرياتٍ يعتمدها المغامرون في سبيلِ العلم والمعرفة وخدمةِ الانسان.

صارت تحب فيكتور هوغو وعذاباته. ولم يقتصر حبُّها لأعمالِه السردية "البؤساء" و"احدب نوتردام" و"عمال البحر"، ولا شِعره الرصين الذي تحفظه الأجيالُ الفرنسية في مناهجِها التربوية والدراسية.. أحبَّته أكثرَ بعدما عرفت عن مُقارعتِه لنابليون الثالث ملك فرنسا المنقلِبَ على النظامِ الجمهوري، وعن هروبِه من باريس بعدما وصفَ نابليون بالطاغية وعيشه عشرين عاماً في المنفى كتبَ خلالها الروائعَ وحقَّقَ الامجاد، لكنَّها امجادٌ دفع مقابلَها ثمناً غالياً من صبرِه، وجَلدِه، ومُعاناته، وجراحه.... تمنَّت يوماً زيارة باريس لتتوجَّه مباشرةً إلى مَقبرةِ العُظماء حيث تجده مُستيقظاً جوار شاهدةِ القبر إلى جانبِ فولتير وجان جاك روسو

يتحدثون عن الجمهورية التي دعوا اليها رافضين الانقلابات وعودة الملكية مثلما كانوا يتأسون على معاناة قرينِهم هوغو وهو يرى اعزاء له يموتون امام عينه. ابتدأها بوفاة ابنه البكر شاباً يافعاً، تلاه الابن الثاني؛ ثم غرق ابنته ولمَّا تدرك العشرين عاماً؛ صاحبها زوجها إلى الموت غرقاً وهو يحاولُ انقاذها.. قالوا له: تحمَّل الطعنات القدرية فروحُك ما عادت تخشى الجِّراحَ ولا نزفَ الجَّلَد والتحمُّل.

ولم يقتصر حبُّها واهتمامها لهوغو فحسب بل انتقلَ الى ديكنز، وهو يصوُّرُ بكتاباتِه الساخرةِ المغموسةِ بالمرارةِ واللوعةِ تلك الطبقة الاجتماعية المسحوقة التي تعيش في القاع، وتلك الشريحة المقموعة من الأطفال الذين يعانون الهِزال والضَّعف والشحوب جرّاء القمعِ والاضطهادِ والهوانِ الذي يُمطِره عليهم القيّمون في مؤسساتٍ يفترض بها أنْ تكون خيرية وتربوية فإذا هي مؤسساتٌ لنشرِ البؤسِ وتكريسِ الشَّقاء.

ولقد أحبَّت فولتير، رائيةً فيه المُدافع عن حريةِ الرأي والعقيدةِ والمُعجَب بشكسبير بوصفِه النموذجَ الذي ينبغي الاحتذاءَ به أدبياً فيما همست لي مرّة أنها تُحبُّ قراءة سبينوزا، وترحل في أمواه أفكاره؛ تعجِبُها تطلُّعاته واعلانه أنَّ تأثير السياسة والدين على الانسان هما سبب بقائه تحت نير العبودية.))

الصفحة الثالثة والعشرون:

((للعطرِ الطائرِ من ثنايا الألوان وجودٌ يبعث على تتبِّع الحركةِ الدائبة، تشهدُها الشوارعُ وتسجِّلُها السّحابات المتناثرة في السماء. أنتظرُ اللحظةَ التي تُعلن الشروعَ بالتحرّك الى جميلة.. وجميلةُ تُعلن لي وأنا ارافقها بين ألوانِ النهار القزحية، واللونين الرمادي والأسود المهيمنين على الفضاء والاشياء ليلاً عن أفرادٍ من اسرتها والأقارب.. قالت أنَّ لها عمّاً نحاتاً، رافقَ النَّحات خالد الرحال يوماً ما، وعمّاً آخر مُغرمٌ بالرحلات فلم يُشاهَد طيلةَ خمسة أعوام في المدينة، وكان حين يراسلونه ويبعثون له بعتاب يستميحهم العُذر ويُعلِمهم انَّه مُصابٌ بداءِ جدِّهم البعيد السندباد؛ مُصرِّحاً: حتى لو جئتكم فليسَ لي القدرة على البقاء بين ظهرانيكم، إنَّ جرثومةَ اللابقاء، اللامكوث لا قدرةَ لي على حصرِها، ومن البَلادة اعتقاد سيطرتي عليها. إنّها كالزئبق مَحالٌ الامساكُ به. لذا احسبوني رَقماً بينكم.. فالمدنُ تندَه بي، وعاداتِ الشعوبِ تغريني للارتماء في مياهِها. إنني بَحَّارٌ لا ثباتَ له.

وكان لها عَمٌّ ثالثٌ تقول عنه انه كالمعتوه، لا يُحبُّ الهَندمة، ولا تهمُّه المظاهر، يصفها بالزائفة. يؤمنُ بالقوى الخارقة ويعتبِر ستالين وهتلر رمزَي هذه القوى، اذْ قادا الجموعَ البشرية إلى مَهاويَ الموتِ والدمار ولم يَقف بوجهيهما أحدٌ. أمَّا تشرشل فيحسبه أغبى قائدٍ على رأسِ السلطة؛ يتظاهرُ بالقوَّة بينما هو يتكئ في مواجهة هتلر على الروسِ تارةً وتارةً على الامريكان. ولم ينتهِ غباؤه الا

بدمارِ لندن وترْكَها حُطاما مُبعثراً.))

الصفحة الاربعون:

((لأكثر من مرَّة كانت تقترح أنْ لا نأخذ الجهةَ اليمنى من الكورنيش عبوراً الى الصوبِ الصغير انَّما نستمرُّ في سيرنا فنجتاز صفَّ المقاهي المتوزعة على الرصيف، ونمرّ من تحتِ الجسر الحديدي الذي بُني إبان العهد المَلكي وأُسقِطت دعائمُه، وهشَّمته الطائراتُ المغيرةُ في حربِ الخليج الاولى. وحين نصل مَطعم "شاطئ الفرات" تقترح عليَّ تناولَ وجبةٍ خفيفةٍ من البيتزا في جناح العائلات؛ تلك الهاربة من دهاليز البيوت ووخمة المطابخ كي تتنفس ما تجودُ به أشجارُ السِّدر والغَرَب المحاذية لضفة النهر من ظلالٍ تخلقُ نوعاً من التواصل الاجتماعي، وروح الألفة مَقرونةً بالتواد.. تأخذُ دورَ المتحدِّث وأنا المُنصت باهتمام. فاطَّلِعُ على صفحاتٍ مهمَّة من تاريخها العائلي والنفسي. وأسمع الكثيرَ من اهتماماتها مُضافاً لما سمعته وردَّدته أكثر من مرّة.

حكَت لي عن عطورٍ تطيب لها نفسُها فنطقت بأسماء: لَيدي شانيل، إنديفيجوال، بيور بِنك، سَو لاف، فلاور بومب؛ وغيرِها.

لذلك ما أنْ دخلنا السوق المسقَّف وصرنا نطالع واجهات المعارض وحركة الناس حتى أوقفتني عندَ بائعِ عطور. مسَحت ما معروض ثم تركته الى المعرض الثاني الملاصق له.. أخذتُ أسوحُ بنظراتي على العُلَب المتنوِّعة الأشكال والأحجام وأتابع

الرفوف المتعالية حتى السقف الثانوي المُطعَّم بالمصابيح الثلجية، وأترنَّم بترانيم العطور المتضاربة وهي تملأ أجواءَ المَحل المتبارية بعرض قنانيها والقوارير تاركاً البائع يستقبلها بعبارات الترحيب وهو يذكر اسمها مُعلِناً أنها زبونةٌ دائمة، هوايتها شراء العطور المتميزة، وسرورُها كما صرَّحت له يوماً يتكرَّس بالفضاءِ المُعطَّر. فالعطورُ كما كنتُ اسمعها مِراراً هواءُ الجنّة، ولا ادري من أين اتت بهذه الجملة الشعرية التي تقرب من قول الله... ولم نبرح المكان الا وهي تبتاع لي قارورة "ريف دور". هذا العطر المفضل رشَّه على الوجه بعد حلاقة الذقن. لا أدري كيف عرَفَت أنَّه عطري المفضل. ينفذ إلى مملكةِ الروح فأتخيَّله أريجَها الخارج من مسارب ذائقتِها العابقة بالورد ليمرَّ على وجهي، فيتمثلُ تحيةً تُفعِمني بنهارٍ عابقٍ وشذي كلما حلقْتُ ذقني صباحاً.))

***

نهض.. وكان يودُّ لو ارتدى بدلته وخرج، يُشبع قلبَه من نسائمَ فَضاءٍ لطالما احتواه وجميلة. لذا بدت الصالة ضيقة، والصدر آخذ بالانقباض، ومسارات، كان يتخذها وهي معه، تنده به.

هبط الى الشارع.. ووجد لِزاماً عليه قطعَ الطريق الممتد من أقصى شارع الفنادق وصولاً الى الكورنيش.

كانت سيارات التاكسي تقف طابوراً يحاذي اشارات المرور الضوئية حيث التقاطع الآخر الى شارع باتا وعكسه الشارع

المؤدي الى ساحة النافورة، بينما امتداد الطريق شمالاً سيوصله الى شارع الكورنيش.. تذكَّر أنَّه وجميلة مرّا مِن هُنا كثيراً.

واجهته لافتة مصرف الرشيد؛ وكان المصرفُ مُغلقاً والاسلاكُ الشائكة تمنع الاقتراب من رصيفه فيضطرُّ المارَّةُ للمشي في الشارع مع زحمة السيارات.. شاهد جمعاً من الشباب المُتأنقين وعدداً من المتقاعدين الذين يبحثون عن برامجَ يقتلون فيها الوقت يتقاطرون للدخول الى البيت الثقافي الذي ارتفعت على جانب من بابه العريض لافتة تشير الى اقامة معرض تشكيلي لعدد من الفنانين الانطباعيين وهم يرسمون بالألوان المائية، عرف منهم ثلاثةً وجهلَ اثنين.. لقد صحبَ جميلةَ الى البيت الثقافي مراراً وشاهدا مَعاً الجلسات الأدبية والمحاضرات الاعلامية.. وحضرت له محاضرة عن مؤرخين أجانب كان لهم الفضلُ في ملءِ صفحاتٍ كثيرةٍ من تاريخ العراق وتقديمها الى القرّاء، ولولاهم لكانت الكثير من الزوايا والطوايا لتاريخ البلاد مجهولة وغير مؤرَّخة.

توقفت سيارة تكسي نزلت منها امرأةٌ خمسينية غاضبة وتوجهت لرجل سبعيني عجوز يبدو أنَّه مريض يعاني من الانهاك والألم. فتحت الباب وراحت تصرخ به: "انزل.. انزل.".. ولم يكن قادر على النزول لأنَّه بحاجةٍ الى مُساعَدة، فانبرى شابان كانا يلبسان الجينز والملابس الضيقة وشعرهما "سبايك" مودة الشَّعر السائدة،

فعملا اعتماداً على همّة شباب تتَّسمُ بروح حبِّ التعاون وخدمةِ الغير على انزاله من العربة وهما يرجوان المرأة التي حدس المشاهدون أنَّها زوجته وتصغره بما لا يقل عن عقدين من الاعوام من ايقاف تعنيفها ونهرِها له... توقف يطالعها بشيء من النفورِ والضجر. عابَ عليها سلوكاً لا يتَّصف به الا المخلوقُ الجاحدُ. فالجاحدون سريعاً ما يتنكَّرون لِمَن فرشَ أمامهم بساطَ التواضعِ وقدَّمَهم على نفسِه فآواهم وأطعمَهم، حتى إذا شبِعوا أداروا وجوهَهم، فلا ودَّاَ له يظهرون، ولا فضلاً به يعترفون.

عند التقاطع تدافع المارَّة يزاحمونَ أصحابَ العربات التي انفتح لها الضوء الأخضر. بتذمّرٍ صاحَ رجلٌ قضى عشرة أعوام في السويد لاجئاً: "ما تتعلمون النظام حتى بعد ألف سنة... الاشارة الخضرة للسيارات فَلِماذا تخترقون النظام وتعبرون؟"... لقد تذمَّرت جميلة مرَّةً وهي تشاهد مثلَ هذه الحالة في هذا المكان نفسه.

عندما عبرَ الجسرَ وشاهد على مبعدةٍ المصطبة التي جلسا عليها آخر لقاءٍ قبلَ تركِها المدينة تذكَّر أنَّه كان يحدثُها عن قيمةِ المادةِ المعرفية وتوازنها مع العقل، مُشدِّداً على أنَّ المعرفةَ، أيَّةَ معرفة، تتوازى والعقل المتعامل معها؛ مؤكِّداً بالقول "كلَّما فكَّر ذو العقلِ الراجحِ ارتقى الى نواصي المثالية؛ وكلَّما فكَّر ذو النزعةِ البغيضةِ تقهقرَ مُنكفِئاً إلى دركِ الوضاعة".. جاءت حصيلة قوله هذا عندما سألته عن دوافع اولئك الذين يرون في قتلِ الآخر دربا

للدخولِ الى الجنة، والفوز بالحورِ العين والوِلْدان المخلَّدين.

ويوم سألته عن حضورِ السعادة ورغبةِ البشر في بقائها تهبُهم الهناءةَ والسرور، قال:"إنَّ جُلَّ ما يبغيه الانسان من السعادة أنْ تطيل مكوثها معه بينما أقصى ما تهدفُه السعادةُ من حضورِها هو زرعُ الأملِ وتجاوزُ النكوصِ، واعلاءِ فكرة استمرارها على كلِّ المحطات وإنْ تأخرت."

اتخذ رصيف شارع الكورنيش، وانحدرَ حاثَّاً الخُطى للعبور الى الصوب الثاني قصداً للوصول الى المصطبة التي كثيراً ما جلسا عليها.. إنَّها تذكره بالعشِّ الذي يلتجيء اليه الطير كلَّما حنَّ لمرابع نشأتِه.

إنَّ المصطبةَ التي يجلس عليها الآن مبعثُ ذكرى، واعادةُ حكايات قالها، وكانت هي تستمع اليه بشغف.

سيقضي في المكان ما يربو على الساعة قبل أنْ ينهض ليعتريه احساس بالسعادة على قلَّتِها وضآلتها. ففي المكان يستعيد ساعات هنائه، وتعود جميلة بأنفاسٍ حرَّى تطالبُه بالقصِّ الممتع، والحكايات التي تقطرُ عذوبةً كعذوبةِ العسلِ الملوكي.

***

كانت جميلة تغرق في عَبيرِ السعادة عندما تدخل عليها المرأة المؤجِّرة من الباب المشترك بين البيتين، ذلك الذي لا تفضِّل فتحَه كي لا تسبّب ازعاجاً للمستأجرين. فثمّة مَن يفضِّل الخصوصية

والسريّة في تفاصيل البيت؛ لكنَّ جميلة هي مَن اقترحت عليها أنْ تفتح وتدخل متى شاءت. وكثيراً ما نقرت جميلة على البابِ دلالة الدعوةِ والرغبة في حضورِ المرأة.

تنهض جميلة مثل طفلة تستمتع بمَن يُغدق عليها الحنانَ ويُشعِرها بالألفة.. تنهض لتعدَّ لها شاياً، ومعه تقدِّم بعض مُعجنات تأتي بها حين العودة من مكانِ عملها إذْ تقف عند بائع حلوى يأتي بحلواه من العاصمة تميّزاً على باعة الحلويات الذين تقتصر معروضاتهم على الانتاج المحلي. تتلمَّسُ المرأةُ المؤجِّرة فيها براءةً لا تتَّصِفُ بها إلّا مَن تربَّت في بيتٍ لا تقرَبُ منه البغضاءُ ولا تنمو بين آجرات بنائه الأسري أدغالُ الحسدِ فتحدوها رغبةُ زيارتها باستمرارٍ لتضفي على وجودِها جوَّاً مِن الطمأنينةِ تُقلِّلُ من غائلةِ وحدةٍ تحيطُها.

ولقد اكتشفت المرأة أنَّ أبَ الفتاة، ومنذ أكثر من أسبوعين، لم يأتِ الى البيتِ إلّا لِماماً؛ فهو يعيشُ كما صرَّح لها في بيتٍ لوحدِه ويُفضِّل بَقاءَ ابنته في بيتٍ آخر. وهذا ما كان يثير حفيظتُها. وكلَّما همَّت بطرح السؤال على جميلة تراجعت، شعوراً منها انَّه سؤالٌ فضولي قد يُزعِج الفتاة فيجعلها غيرَ مرحَّبٍ بها.

ولقد شهدت المرأةُ حبَّ جميلةٍ وبشغفٍ مُثيرٍ للاهتمام لقراءةِ الكتب مثلما شهدت ولَعاً لا حدود له في اقتنائِها... فما خرجت لوحدِها يوماً إلّا وعادت تنوءُ بحملِ كتبٍ كانت تُثقِل يديها...

وجدَتها لا تحبّ القراءةَ الصامتة انَّما تستعذبها جهوريةً مقرونةً بالتمثيل بالأصابعِ وهزِّ الرأس وتأرجحِ الجذع حين تكون جالسةً خلفَ منضدتها التي عادةً ما تضم جهازَ الحاسوب.

كانت قراءةُ جميلة الصائتةُ تصل الى بيتها كالدمدمةِ؛ فتُكبِر فيها دماغها الذي تُشبِعه بالضجيج واذنيها اللتين يتحمّلان دفيقَ صوتِها الذي لا يتقطَّع... ومرةً، إذ دخلت عليها هالَها تلالَ كتبٍ جمعتها وجعلتها تغرقُ في دهشةِ تساؤلات كيف ومتى ولماذا أتت بكلِّ هذا الكوم من المؤلفات؟.. كيف يتسنى لها الوقت كي تقرأ هذا الهول من الورقِ المغلَّف بشتّى الاغلفة.

كانت كتباً تجمعُ الأعمالَ الروائية لكبار الكتّاب الشهيرين تركوا بلدانَهم وقاراتهم واجتمعوا في هذه الغرفة الصغيرة، في هذا الزقاق الصغير، في هاته المدينة الصغيرة، وهذا البلد الكبير.. كانت الاغلفةُ الخلفيةُ لبعضِها تعرض صورَ ديستوفسكي، جاك لندن، ستندال، ديكنز، توماس هاردي، نجيب محفوظ، هوغو، فرجينيا وولف، ميشال زيفاكو، توماس مان... وهناك جمعٌ من كُتبٍ كانت اغلفتُها الامامية مقرونة بصورِ كُتبٍ في أعلى أو أسفلها أسماء: جون لوك، هوسرل، هنري بريجسون.. كيغارد، منتسكيو.. برتراند راسل، فولتير... يتراصف مع هذا الجمع مجاميع شعرية حديثة ودواوين: محمد الماغوط، أدونيس، وليم وَردز وَرث، كيتس، المتنبي، رامبو، بودلير، ابو تمام، الجواهري، إليوت، الفريد

تَنيسن..... ولم تتخلَّف عنها في جمع آخر كتب تتعامل مع الفن التشكيلي، فترى كتب: فن الرسم، "الانطباعية " لجان ريماري، وهو يعرض رموزَ هذا التيار الذي قدَّم أعماله التشكيلية منتصف القرن التاسع عشر في باريس فرفض أولاً ثم بَعد حين أصبحَ من أعتى التيارات الفنية، مُحدِثاً خلخلةً لونيةً وضوئيةً ومكانية نقلت الفنَّ التشكيلي من بقعةٍ إلى أخرى، كالانتقالِ من جزيرةٍ لجزيرة.

وما لفَت انتباهَ المرأةِ أيضاً رفٌّ يجاور وسادةَ نومِها جمعت فيه ما يزيد على العشرين كتاباً. لا تعرف لماذا عزلتها عن أهراماتِ الكتب التي احتوتها غرفةُ القراءة والكتابة.

في واحدةٍ من زياراتها المحبَّبة حدثتها المرأة عمَّن استأجروا البيت.

قالت لها: "لقد استأجرُه قبلَكِ كثيرون. النساءُ منهنَّ على وجهِ الخصوص.. كان مرغوباً ومفضلاً ممَّن يأتين للسكنِ في هذه المدينة بدواعي العيش بطمأنينة وأمان."

حدَّثتها عن مستأجرةٍ قدَّمت من البصرة فعاشت فيه خمسَ عشرةَ سنة.. وعن فتاةٍ هي الأخرى جاءت مِن البصرة. سكنت لفترةٍ محدودةٍ ثم عادت الى مدينتها من جديد.. سكنُها القصير أنتجَ حالةَ زواجٍ؛ فقد تزوَّجت من شاعرٍ تمنَّت العديدات من بناتِ الحي الاقترانَ به، لكنَّ النصيبَ صار من حصّةِ فتاةِ البصرة؛ وهو الآن يعيش هنالك. قيل أنَّه يعيش وايّاها في بيتٍ فخم في

مَحلة مناوي باشا خلَّفه لها والدُها... كما حدَّثتها عن ثلاث نسوة من بلدة سامراء استأجرنه؛ ولم يكنَّ يَسكُنَّ فيه طوالَ الشهر انَّما يأتين قاطعات المسافات البعيدة فيبقين اسبوعاً، أقل أو أكثر، فلهنَّ سجينٌ شابٌ مُعتقل في سجنِ نقرةِ السلمان الصحراوي. إنّه ابنُ المرأة الخمسينية، وزوجُ الشابّةَ التي في الثلاثين، وأخُ الفتاةِ الصغيرة ذات الخمس والعشرين عاماً.. تأتي الثلاثة مُحمَّلات بحقائبٍ ملأى بما وجبَ على القلب من دَينٍ واخلاصٍ للإيفاء به: ملابس وكتب؛ فواكه مُجفَّفة ومكسَّرات؛ رسائل من محبين وشوق عارم من اقرباء، دعواتٌ تحثُّ على الثبات من رفاق وتحياتٌ مفعمةٌ بالشوقِ من الأصدقاء... وهنا في المدينة يبرحن البيت صباحاً فيأتينَ بالخضار والفواكه واللحوم. يقضين النهار منهمكات في الطبخِ فينتُجنَ أكلاتٍ تكفي لإطعامِ جيشٍ من المتشوقين لتناول وجبةٍ من يدِ أمٍّ حنون وزوجةٍ وفيةٍ وأخت تتباهى بنضالِ أخيها. ومع أولى لحظات اطلالةِ فجر اليوم التالي ينطلقن إلى البادية... هناك يصرفن نهاراً كاملاً ثم يعُدنَ بحقائب وقدورٍ فارغةٍ وقد وزَّعن ما حملنه على السجناء اقران سجينهنَّ في النضال. وكان حضورُهنَّ يشيعُ في فضاءِ السجن طراوةً، ويجد السجناءَ أنَّ الدنيا بخيرٍ، وأنَّ ما جئنَ به لرفيقِهم هو مُلكية مشاعة. يحصدون من فَمِ الأمِّ لآلىء الإكبار وقصائد الاعتزاز؛ تنقل لهم تحيات الناس وتبجيلهم؛ ما يزرع في النفوسِ التائقةِ الى الحريّة

والمصرَّة على النضال حقول النماء والشعور بأنَّ الوطنَ لا يُبنى ولا يشمخ إلا بكفاحِ ابنائِه المتفانين في حبِّهم له، وكلُّهم استعداد للتضحية من أجله حدّ الموت.. وكان حضورُهنَّ يُبهِج حتى حرّاس السجن؛ إذ ينالون مِمّا جئنَ به فيأخذون حصَّةً منه الى أُسرِهم.

كثيراً ما تدخل على جميلة فتجدها مُنهَكةً، تتعثَّر من شدّةِ الاعياء. فالعمل في العمق الريفي والبيتِ والكتابةِ أخذوا من طاقتِها الكثير. فتقودُها الى الغرفةِ المجاورة حيث سريرُ نومِها... تساعدُها على الاستلقاء وتغطيها، ثم تُطفىء النور. وتؤكِّد عليها بضرورةِ النوم باسترخاء وارتياح... بعدها تخرجُ لتؤدّي بعضاً من متطلبات جعل البيت في أحسنِ حال؛ فتغسلُ لها الصحونَ، وتكنس ارضيةَ الحوش وتنظِّم الغرفةَ الأخرى.. ترتِّب ما تبعثر على المنضدةِ من ورقٍ، فتجمعها وتصفِّفُها.. وإذ تتأمل الأشياء وتجدها في تنظيمٍ مُريح تبرح الى بيتها وقد اعتراها شعورُ أدائها واجباً لابنةٍ لها.

(٤)

تلك الزاوية كانت تُكايدُني بكَ
وأنتَ تلوذُ بها ولا تحنُّ إليَّ.
سعيدةً كانت بمكايدَتي
تجمعُ ضحكاتِها
وتُمطِرُه شماتَةً في فَضاءِ
مُلكيَّتي.

النهر.. المنبع والمصب

كانت الأوراقُ التي صفَّفتها المرأةُ المؤجِّرة آخرَ ما كتبت جميلة... كتابةٌ كانت بمثابةِ افضاءٍ لبيانِ مَعرفةٍ أو بوحٍ في كَلامٍ أرادته شهادةً نصيَّة مُدوَّنة.

((تعود تلك الجلسة التي بهيئةِ محاضرةٍ جَمعت مَن جاءَ لينهلَ من نهر معرفةٍ شهدت له المؤتمرات والملتقيات والحلقات الدراسية، ناهيك عن الصحفِ والمَجلات ووسائل الميديا الأخرى. فالمعرفةُ ذلك الفيضُ النوراني المُقرونُ بمَطرِ تنقيةِ الروح وفعمِها بحبِّ البحثِ والتقصّي اضافةً لمنحِها مدِّ الطمأنينة ومحاولة فَهم الما حول.

إنَّ طلبةَ الحلقةِ الذين جاءوا وقد تهيأوا واستعدّوا لتدوين كلِّ

جملة يقولها، ورسم أيَّةِ اشارةٍ تبدر منه مُصاحبة لما يفوه به لسانُه انَّما جاءوا وفي دواخلِهم تتأجَّجُ مَجسَّات التقاطِ هيأته بقوامِها وحركتِها؛ يتنامى شَغفُ التمثُّلِ به واستنساخِ شخصيتِه كي يكونوا مُطابقين له... ولَكَم تمنّوا أنْ يكونوا يوماً مقاربينَ له في عِلمِه، ومتساوين له في ما يَختزن من أفكارٍ وما مرَّ به من تجاربٍ وخبرات؛ فلطالما بحثَ الانسانُ عن النموذجِ للتمثل به؛ لطالما تباهى بمَن يَنهل من ثرائِه المعرفي ويغترف نوراً من نبراسٍ ونموذج له، على رؤوس الاشهاد.

وكنت أنا من بينِ الطالبات والطلبة القادمين للنهلِ والاغتراف. جئتُ وقد هيأتُ كافةَ أجهزةِ التصوير وجميعِ نوابض تسجيلِ نبرات صوته.. جئتُ يساورني شعورُ أنْ أسحبه، أنْ أسرقَه فاعتقله في احدى حُجرات ذاكرتي حيث يمكنني بعدَها الدخول يومياً، ومتى شئت، قَصدَ تفكيكِه وتركيبِه، استفزازه وتطمينه، الجلوس اليه لساعاتٍ ومحادثته على رَواء.

في ذلك الصباح البهي والمَشهود بعذوبتِه الربيعية؛ في القاعة التي شغلَ الطلبةُ معظمَ كراسيها حضر نابليون بجيوشِه الجرّارة وقادةِ حروبِه العِظام؛ حضرَ بطموحاتِه المفتوحةِ على اللا انتهاء، على اللا توقّف في نظرته إلى الاجتياح.. حضر غاريبالدي ومحاولاتهِ لتحرير ايطاليا ونجاحه في خلقِ شخصيةٍ يعتزُّ بها أحرارُ العالمِ المنادينَ بالوطنيةِ وتكريسِ الحريَّة.

حضرَ الأميرالُ نيلسن بأسطولِه وهو يجوبُ البحرَ المتوسط وقد أعدَّ خطةً لتدميرِ اسطولِ فرنسا الخرافي في معركةٍ بحريةٍ مهولةٍ عند شواطىء خليج أبي قير المَصري.. حضر سبينوزا وهو يُجاهرُ بأنّ "التفلسف ليس خَطراً على الدولة أو على الإيمان، وأنَّ الحرية الفكرية والدينية ضرورة في دولة ديمقراطية حديثة."..
حضرَ توماسُ مور ونداؤه في خلقِ عالمٍ يوتوبي فاضلٍ في دولةٍ تنتفي فيها القسوةُ والعَسفُ وتسودُ المعرفةُ والعدل.. حضرَ توماسُ أديسن وآنشتاين بذكائهما الثاقب مُحدثين انعطافاتٍ علميةً ساهمت في نقلِ البشرية إلى مصافي حياتيةِ اثرت الايامَ بنورٍ وادراكٍ هائلين.. كذلك حضر فرويد ليؤكِّد على فعلِ الممارسةِ السريريةِ في التحليلِ النفسي كأحدِ اساليبِ علاجِ الامراضِ النفسية، وضرورة الحوار بين المُحلِّلِ النفسي والمريض.

حضرَ هؤلاء وغيرهم، وتباروا في فَضاءِ قاعةِ المحاضرة.. دخلوا مسامعَ، وطرقوا أبوابَ. تحاوروا وتجادلوا أمام الحضور المُنذهل بطوفانِ المعرفة، بفيضِ مَطرِ علم المُحاضر مُقبل أمين؛ وهو يتعامل معَهم وبِهم.

أطالعُهُ وهو يقفُ بمواجهتنا؛ وهو يستديرُ ليدوّن على السبورة ما يراه شفرةَ دلالةٍ سينتهي بها الى مدلول.. أطالعه وهو يرسم ابتسامةً مقرونة بإيماءةِ دهشةٍ لدعمِ فكرةٍ يقرنُها بهذا البطلِ التاريخي أو ذاك الفيلسوفِ الذي جاء به القدرُ ليكون في تلك

الحقبة وذلك الزمن الذي تبارى فيه البطلُ في تحقيق آماله.

وإذ انتهت المحاضرة كانت غرفة ذاكرتي ملأى بثراءِ ثقافتِه، وجمالِ طلعته، ولباقةِ لسانِه، ومقدرته الخرافية على الوصول الى العقولِ بعذوبةٍ ويُسر.

كان مثلاً عن بعدٍ، فصارَ امتلاكاً باليد.

وإذ تفرَّق الطلبةُ نهضتُ؛ ورحت اتبعه؛ حتى إذا أوشكَ على ادراكِ غرفةِ الادارة اسمعته همسَ براءةٍ، بكلمة " استاذ؟. تلك الكلمة التي ما أنْ استدار حتى جرت له صعقةٌ زلزلت له جانباً من كيانه الخفي؛ أو هكذا خيِّلَ لي.))

نعم؛ كانت نظرات مَن تقف خلفه مُحمَّلةً بالألغاز، موبوءةً بالأسرار.. كانت اشعاعاً لا مرئياً تدفق من العينين السوداوين الواسعتين اللتين وإنْ بدتا طبيعيتين، لكنه رآهما بغير ما يعهده البشري في رؤية عينين بشريتين.. كانتا كرتين متوهجتين. توهجٌ لا يدري لماذا ساوره جراء التركيز فيهما دوارٌ قاده الى عدمِ تمالُك اتزانه، فدفعَه إلى الاستعانةِ بكفَّه كي تتكىء على الباب لتفادي انهياره وسقوطه أرضاً... إنَّها المبالغةُ في ايقاعِه بشراكِ اهتمامها... لم ير فيها ما قد يحسبه فتاةَ غوايةٍ، فتاة مَكر وخِداع، فتاة جاءت لتطيح بهيبته.. كانت أمامه فتاةٌ عاديةٌ لكنَّها تعرض اعجاباً بشخصه؛ تُقدِّم شوقاً لعلميته؛ تفشي رغبةً في تمثله.

((نعم.. كنتُ أعرض اعجاباً بشخصه؛ وأتقدَّم شوقاً لعلميته،

وأفشي رغبةً في تمثله.

طالعني بتمعّنٍ؛ ثم تَرك دواخله تستفهم: " إنَّ هذا الوجه ليس غريباً".. زاد في تمعنه كأنَّه يستدرج الذاكرةَ لسكبِ محتواها، لاسترجاع وجوهِ طلبته في مراحلِهم المتفاوتة، والمتنوعة؛ فلم يفلح كما يبدو.. إلى أنْ قلتُ له: "لقد التقيتك، يا استاذ في دائرة الجوازات. كنت جئتَ لتجديد جواز سفر؛ وكنت أنا بصدد اجراء معاملة استخراج جواز بعدما حزت على منحة دراسية فزتُ بها جراء سيل من الاختبارات."

ذلك الكلام جعله يُشرق الوجه، ويطلق شفتيه بجميلِ القول: "نعم تذكرتكِ."

وتذكرها.. تلك الفتاة التي شهقت لرؤيته إذ وجدته أمامَها بنبرةِ صوته التي ايقظت فيها حنين رغبة اللقاء به يوماً ولو بالأحلام... هو من قرأت له فهامت؛ وتبعت قلمه فتاهت على ظهرِ سفينةِ منشوراته الماخرةَ عُباب الأحداث، والعابرةَ بحور الازمنة.

((إنَّ هذا الذي يكتب في التاريخ يكتبُ في الأدب أيضاً.. ومثلما يجالس في أسفاره التي لا ترسو في مَحطةٍ إلا وبرحها لمحطةٍ أخرى قادةَ التاريخ والعظماء ممن احدثوا انعطافات في مسيرة البشرية وحركيتها الديدنية فإنه لا يبرح يجالس عظماءَ الادبِ ورموزِ الثقافة... فكم من مرَّة شاهدته عبر مقالاته وتحليلاته النقدية يصاحب فيكتور هوجو مترنماً بأشعاره؛ يسير مع

تشارلز ديكنز في ازقة لندن المعتمة الموبوءة بالفقر المدقع، ويبحث مع نيكولاي غوغول عن معطف اكاكي اكاكيفيتش الذي سرق منه في ليلة صقيعية وظل يتعالى هتاف احتجاجه في حواري موسكو ودروبها.. يدخل باراً شبه معتمٍ يرتشف الجِّن مع بودلير ورامبو، مثلما يَثمل بألوانِ مونيه المشرقة وماتيس الوحوشية.. يدخل صالةَ قمارٍ محاولاً اخراج ديستوفسكي من دائرةِ هوسِه بورق اللعب في زاويته المعهودة، ثم يهم بالخروج فيشاهد ارنست همنغواي هو الآخر مُنهمِكاً في اللعب وقد ملأ فمَه بسيجارٍ كوبي تشيع رائحةُ الفانيلا من بين تبغِه الرطبِ العَذب.

كنا نسمعه يردد بصوت رخيم: "إنَّ الانعطافات التاريخية لا يُحدِثها الا الرجالُ العِظام؛ وإنَّ قدرَ البشرية أنَّ عظماءَها قليلون، محدودون. لا يزيدون على عدد اصابع اليدين كل حقبة زمنية."

وهو بهذا يشيرُ الى ضرورةِ عدمِ اقتصارِ دخولنا الى التاريخ على القراءة ومعرفة ما جرى وما آلَ إنّما توظيف الأحداثِ لإحداثِ ما يستدعي التغيير. والتغيير بحدِّ ذاتِه لا يأتي بمرسومٍ مُنزَّلٍ من السماء؛ انَّما الشارع هو المغيِّرُ. وهو الحاضنةُ المُثلى للثورات.

ويروح يتمثل بالثورة الفرنسية تاريخياً؛ ثم يعرج عليها أدبياً فيذكر كيفَ أنَّ ديكنز صوّر في روايته "قصة مدينتين" الشرارة الأولى المتخيَلة إذ جعل ذلك الموطن الفرنسي الثاقب النباهة

يكتب كلمة "دماء.. دماء" على جدار أحد ازقة باريس بيدٍ لوَّثها النبيذُ الاحمر الممزوج بوحلِ الطريق، بفعل انقلابِ برميلِ النبيذ من عربةٍ تحمله واندلاقه على الأرض واندفاع المشرَّدين المتسكِعين على رصيفِ البطالة الذي يحتويهم الى البُركةِ الحمراء التي تكوَّنت فراحوا يشربون أو يكرعون أو يلعقون بألسنتهم كما الجراء.

لقد كان يردد:"عليكم أن تدركوا أنَّ التاريخَ والأدبَ صنوان. يُعمّق احدُهما الآخر في ذاكرةِ الاجيال".

وكانت مدينته السماوة حاضرةً في ضميره.. يعلن اعتزازه بها أدباً وتاريخاً. لكنُّه يخاطبنا بتململٍ: مدينتكم بلا تاريخ مكتوب.. فقط حوادثٌ تُنقَل على الألسنِ شفاهياً.. لابد أنْ يستحيل اللانص نصاً.. لابد أنْ يكون للمدينة كتابٌ مدوَّن، تطالعُه الاجيالُ القادمة."

وحينها ينبري أكثرُ من مستمعٍ للمحاضرة:

"ولكنَّها مهمةٌ الأجدرُ بكَ أنتَ تولِّيها، يا استاذ."

فيردُّ بلسانِ الجزع:

"لقد كتبتُ الكثيرَ عنها؛ لكنَّ الكفَّ الواحدةَ لا تصفق.. ارشقَكم الآن بمطرِ تحميلِكم مسؤوليةِ الكتابة عنها.. إنّها أمانةٌ بأعناقِكم.. قد أموتُ يوماً؛ والانسانُ مهما عظُمَ سيموت. فخذوا ندائي هذا مأخذَ الجِّدِّ.. لا تهملوا مدينتكم لأنَّ لها دَيناً عليكُم."

تتوهجُ عيناي بنورِ الرأي الثاقب الذي أُعلِنُه.. سريعاً يميّزُ ذلك مِن بين نظراتِ المُتتبعين والمستمعين لما يقول؛ فيعتريه كما أخمِّن شعورٌ أنَّني سأتكفَّل بتحمِّل المسؤوليةِ قبل الغير.

يلمحني أكتب في كراستي كل ما يقول.. يراني في حثيث الانصات والتدوين. فقد كنت في سعي عدمِ فقدانِ جملةٍ يقولُها. وإن حدث مثل هذا الفقدان تملَّكني الأسى لعدم التقاطها؛ فاستدركه وأطالبه برجاءٍ وتضرّعٍ اعادةَ ما قال.

حدث مرة أنْ تداخلتُ معه عن أهميةِ اللغة كوسيلةٍ مُثلى لتوصيل أفكارِنا وتداولها فأشار إليَّ عندما انتهى زمن المحاضرة وشرع الطلبة يبرحون القاعة بالبقاء.

رأيته يشعل سيجاراً طالباً العذر لأنَّ وقتَ الفسحةِ قصيرٌ ويبغي امتصاص بعضاً من الدخان.. قال لي وعيناه تعجَّان بما حسبته اعتزازاً، مشيراً إلى المداخلة:

" عرفتُك، يا جميلة وأنا اتابعُ اهتمامات الحضورِ أنَّكِ تمتلكين موهبةً أدبية سنفخر بها ثقافياً.. نعم؛ اللغةُ ظلُّنا الجميل وحبُّنا العذري.. هي زورقُنا الأبدي في شموخِنا الأزلي.. لمن تقرأين؟ "

كان سؤاله هو الفرصة التي يهبها الله للإنسان فاذا أحسنَ استغلالها نجحَ ووضعَ القدَمَ الاولى على طريقِ تحقيق المآل، وإنْ أهملها غدَت حسرةً في قلبه لا تتركه يعيش الهدوءَ وينشد السلامَ إنَّما الندم يبقى يقضُّ مضجعه ويدفعه الى الشعورِ بالخَسارة

الكبرى... لهذا انبرى عقلي قبل قلبي يقول:

"أقرؤكَ أنتَ، يا استاذ."

"ماذا؟!!" واطلق شهقة ابتهاج لم أرْ مثيلاً لها في وجهِ أيِّ انسانٍ من قَبل، وهو ينظر لآخر اصدارٍ له أحتضنه بيدي وأضمُّه إلى صدري.

"نعم، أقرؤك أنت؛ يا استاذ.. كلُّ مؤلفاتِك عندي؛ جميع منشوراتك في الصحافة اجمعُها... من رياضِ ابداعِك غذَّيتُ ذائقتي، ومن نَمير ثراءِ علميتك اغترفتُ ماءَ ثقافتي.. حتى أنَّ مَن قرأني رسمَ خطى تأثري بك وقال أنَّ اسلوبَكِ يشبه أسلوب مؤلفٍ شهير وهو يشيرُ الى اسمِكَ."

وكان كلامي كالمفاجأة لديه.

وكان اهتمامُه بالمحاضراتِ التالية مُشبَّعاً بعبيرِ مَعرفةٍ يراها ضروريةً لألتهمَها كعسلٍ ملوكي.

ويوم أظهرتُ له بعضاً مما كتبت تفتحت ورودُ بهجته؛ ورأيتُ بعد مطالعتِها السريعةِ يقول: "أنتِ كاتبة واعدة لا ريبَ فيها." وكان يريد القول:" فعلا أنتِ متأثرة بي." لكنه تراجعَ ليقول: "اتلمَّس خطاً تدوينياً معبراً يخصك ولا يشير لتأثرك بغيرك."

(٥)

أيَّتُها الوَردةُ
حُزنٌ مُستديمٌ يَتجوَّلُ
في ضياعي
وفي أُفقِ مَتاهتي تَكمُنَ مُنايَ
العليلةَ.

في الصفحاتِ الخَمس التي تلت افضاءَ عشقِه لمادة "التاريخ" وتعلّقه بـ"الأدب" يدخلُ حقلَ العاطفةِ، وتغيراتٍ جرت في غيرِ حسبانه.. يدخل ما كان يقرأه في روايات رومانسيات القرن التاسع عشر والذي قبله، وكان يحسبَها خيالاتِ كتّاب يسكبونَها على الورقِ صوراً وأوراقاً، تداعيات وأحاديث، حوارات واسترجاعات؛ فإذا بالذي طالعه ودرَّسه تحت عناوين النقد والتحليل الأدبي يحدث له؛ وإذا به يجد نفسَه في مواجهةِ الذات ومحاورتها فيعتلي غيمةَ الاعتراف ويمطرها كلماتٍ على الورقِ، أراد لها أنْ تكون ذكرياتٍ ترسمُ عوالمَ يرى ضرورة اطلاع المتلقي عليها سعياً لمعرفةِ بعض من سيرة ذاتية تخصّه، فيكتب:

((كانت رؤيتي لها في دائرة الجوازات شكَّلَ انعطافة كبيرة وخطيرة في مزاجي وطباعي وتصرفاتي. صرتُ انتظر يوماً ألتقيها فأهرع لأنحني وأقبل ظاهرَ كفّها علّها تفكَّ شفرة ذلك الولع الذي

كبُرَ في قلبي فأصبحَ جبلاً يثقل عليَّ انفاسي كلَّما تذكرتها.. أستحيلُ موجوعاً، جَزِعاً، ملولاً فألومُ نفسي كيف أنَّني لم ادعوها لزيارتي في بيتي وارتشاف شاي الصداقة الحقّة؛ وهي الأعرف بالبيت، فقد زارتني مرّةً. جلسنا على أريكةِ الود. تلك الجلسة التي أرَّخت عَطشَ القلبِ للرواء من غَديرِ سحرِها ورشاقةِ قوامها الذي كالرمح؛ ودوَّنتُ كلمات العشقِ المتبادل كما خمَّنته.. لقد قرأتُ ذلك الوقت نظراتها، وحدستُ انّها فتاةٌ جاءت لتُحِب مثلما طرقَ القلبُ بابَ ذهولي؛ وقال مُحذِّراً: إيّاكَ اعلان التغاضي والتظاهر بالبلادة. فما هذه الا فتاةُ الحلم، وخلاصةُ القصيدة، وموضوعُ اللوحة، ونغمةُ الأغنية التي تهيم بها الروح وتستعذبها حدَّ الوله.

إنَّ عليك الهتاف عالياً بما في القلبِ من سعةٍ، وما في الصدرِ من فضاء.. هذا اليوم هو يومُ سعدي.. يومُ انتشارِ الطَّلع في هواءِ الوله.. يومُ حصادِ زهورِ الأمل التي انتظرت نموّها وانبثاقها ويناعتها... سأبني من دفءِ شمسِ الضحى مَخدعاً يضمُّها؛ وسأجعل ذراعي وسادة فأنظر لها أميرةً تنامُ طافيةً على غيمةٍ من ريشِ النعام.. سأطلق في رأسِها قطارَ الرؤى.. سأستدعي زهورَ الأكاسيا تتراقص بلونِها العسجدي مقروناً بالأوراقِ الخضر المَخملية لترسم لوحةَ الهناء.. وسأقول: نامي يا لوليتا شُرفات العشقِ المُطلَّة على حدائق الرومانس.. نامي؛ فلكِ المدُّ المتهافتُ من الأحلام.. احلمي، واحلمي، واحلمي فليسَ الاستيقاظُ ببعيد...

إنَّ الاقدامَ العارية لجمع الفتيات اللائي أراهنَّ يأتين يومياً يحملن القدورَ على رؤوسهنَّ فيرفلنَ على شريطِ رملِ النهر، وينعمنَ بعذيبِ الماء إنَّما يأتينَ ليعمِّقنَ في احلامِك زهوَ الحياة، ويُريَّنَكِ سرورَ قلوبهنَّ، فيجمعنه باقة ودٍّ يقدّمها اليكِ وأنتِ نائمة... نامي يا طفلتي فليس أهنأُ على القلبِ من رؤيةِ طفلتِه ترقدُ بوداعةٍ على وسادةِ ذراعه، وهو يستشعرُ أنفاسَها دافئة، حَرّى تقولُ الهناءَ في حضرةِ الطمأنينة.

كان لقاءُ دائرةِ الجوازات بما حملَ من وقتٍ خاطفٍ أرسى دعائمَ الشوق، والتطلّع الى لقاءٍ أطول مَصحوباً بحديثٍ طويل، أقولُ فيه ما اختزنته. كان لقاءَ العمرِ الذي وعدني بمحاضرةٍ ستكونُ تأرخةً للوله، ومساراً لدربِ الحنين، لأنَّ ما تبقّى من ذلك النهار صرفتُه في التأملِ ودعوةِ السماء أنْ لا تخذلني فيكون لقاءَ وداعٍ بحيث لا يتكرر قدومَ قوامِها، ولا تحيَّتها التي كانت تقطرُ عسلاً من بين شفتيها المكتنزتين، ولا اقطفُ تلك النظرة البريئة المفعمة بشوق لا يعرفه إلّا العشّاقُ العائمونَ في بحيرةِ العشق الخرافية.. تلك البحيرة المُحتفية بضِفافٍ تُغدقُ عليها كثافةُ الشَّجرِ ألوانَ جمالٍ تجعلُها في مشهدٍ جنائنيٍّ؛ رخيمٍ وجليل.

عندما أوشكَتُ على الخروج ومبارحةِ المكان والتواري ما وراء الباب الرئيس التفَتَت فبعثت ببرقيةٍ فسَّرها القلب إنَّ ذاكرتَها طبعت صورَ اللقاء ومجرياته، وأنَّ قلبَها عزفَ ترنيمةَ شوقٍ ستبقى تحنُّ

اليها وتسمعُها كلّما عنَّ عليها الوجد؛ ذلك أنها قالت: "لدي آخر اصدار لك يا استاذ.. إنَّه كتابي المُقدَّس." ، وهي بهذا تشيرُ إلى كتاب "النص في تخوم الافضاء "الذي ضمنته تجاربَ أربعين عاماً من قراءاتٍ نهمةٍ، ومطالعات حثيثة، وبحوث متوالية كرَّست لدي مفهومَ أنَّ سِيرَ الكِبار هي أنهارُ معارفٍ دائمة الدفق والجريان في مسعى لإرواء الارض العطشى للعلم، وخدمة لا تقدَّر بثمنٍ لأولئك الذين لا يرونَ الحياةَ إلّا جهاداً يرفض التقاعس ويؤكِّدَ التوهُّجَ المعرفي الدائم.

ولقد تأكَّد لي اهتمامها بالكتاب من حملها له يوم لحقتني بعد المحاضرة وهمست بصوتِها المُنغَّم كي أقف قبل الدخول الى غرفةِ الاساتذة. كانت تمسكه بقوة ضامّةً إياه إلى صدرها كأنها تخشى انفلاته وسقوطه من شجرة شغفها به.

وكانت فسحة ما بين الدروس لقاءَ بوحٍ واسئلةٍ تطرحها عن كتابٍ لي قرأته أو مصدر وجدَت عنوانه في هامشِ ذيلِ ورقةٍ من أوراقِ كُتبي فتوجَّهت بقراءته واضافة معلوماته إلى خزينِ معرفتِها.. يحدث هذا بينما يخرج الطلبةُ حالَ انتهاء المحاضرة الى الكافتيريا لتناول المرطبات أو الدخول في دردشةٍ تعبث بالوقت.

وفي يوم أفضت لي أنَّها تسعى للبقاء على مَقربةٍ منّي لتنهل كما افصَحَت من عَميم ثقافتي... ولم يكُن هذا الافضاء إلا اشعال ذُبالة العاطفة التي جعلتها خلفَ اهتمامات الدراسة والبحث واعداد

المحاضرات المُجَدوَلةِ في منهاجِ التدريس السنوي.

فكان الاهتمامُ أولاً، وكان الولعُ ثانياً، وكان الولهُ، ثم الاحتراقُ الذي آلَ الى نصيحةٍ نثرتُها على مسمعِها في الانتقال الى المدينة، هنا لتكون على مَقربة.

وصار لي ما أردت. فبعدَ عدة اشهر جاءت نقلاً، بعيدة عن الأهل.. ترجتني المساعدة في ايجادِ بيتٍ صغير يأويها.. أشارَ صاحبُ مكتب عقارات على بيتٍ في زقاقِ بيت العمّة تملكه امرأةٌ عجوز وأغلبُ من نَزل فيه من المستأجرين نساءٌ مستورات.

وجاءت تلك الساعة الحيّية من عَصرِ أحدِ الأيام فصحبتها.

وكان لها ما أرادت.

وكان لي ما آلَ إلى هَناءٍ؛ انتهى إلى عَذاب.

(٦)

غرائبُ تكتبُ غَماماتٍ
زجاجُ الوَقتِ
بالضَّباب يَضجُّ
وأنتَ حُشودٌ
آيلَّةٌ إلى مُنحدرِ الأسى

تلك الأمسيات الحزينة التي توالت عليه؛ وذلك الكورنيش الذي اعتاد على تلقّي خُطاهما وهما يمشيان الهوينا؛ وها هو الجسر ينتظر قدومهما ليجعلهما في صوبِ القشلة حيث المصطبةُ تحنُّ لوجودِهما بعدما هجراها لأسابيع.. كان فكتور هوجو يتكىء على الأفريز النيكلي وجها لوجه مع بوشكين؛ يقول لرفيقه بحيرة: " اين هما الآن؟ لقد اطالا علينا فراقهما؟!".. وعلى مبعدةٍ وقف وليم فوكنر يُدخِن غليونَه ويهمس لهمنغواي: لا بدَّ أنَّ حدثاً ما تسبَّب في عدمِ حضورِهما اليومي؟ وعلى نديف رمل شاطىء النهر وهما يتهاديان كان نابليون يهمس لزوجته جوزفين وقد أخذته الدهشة: لقد تناول مقبل الامين اسمي مراراً في محاضراته فقدمني الى طلابه كرمزٍ مُبهر للعبقرية الحربية، وباذخ الدهاء في السياسة. ولجميلة أسمَعَها أني القائد المقرون بالانتصارات، وباعث الفخار في نفوس الفرنسيين. أخبرها أنني ولدت في جزيرة كورسيكا في

الجنوب الشرقي من فرنسا العظيمة. وسمعته يؤكد لها على ضرورة التعرف على ميشيل زيفاكو المولود في الجزيرة نفسها حين أظهرت جهلاً به:" يجب ان تقرأي قصصه ورواياته.. اقرأي "جسر التنهدات" و"وانتقام فوستا" و"الفارس اليتيم"، وغيرها العديد من سردياته.

لقد طعنه القدرُ في أعزِّ أمنيةٍ رسمها خارطةً للقادمات من أيامِه واعوامه... إنَّ الاقدار إذا تكالبت وخطَّطت لتمزيق تطلعاتِ انسانٍ اجهزت عليه بقتل أملٍ أوحى له بجنانِ خُلدٍ سيدركها يوماً ما.

وكان قابَ قوسين أو أدنى مِن تحقّق التطلعات عندما جرى ما لم يكن بالحِسبان... فقد صارت تتدللُ عليه؛ وتزيد من تعلقِها به. فظنَّ أنَّها الفرصةُ ليقولَ قلبَه ويجسّده حادثةً تاريخيةً مُستلّة من حوادثِ التاريخ؛ وما اكثرها؛ أو يَقرأ لها قصيدةً ينتهي منها بإفضاءٍ ما عَزم على اعلانه لها بقوله: اتقدم اليك لتكوني زوجةً لي واكون زوجاً لك عندما هَتفت بهِ وهو ينتهي من حكايةٍ اعجبتها:

"أبي، أبي.. ما أعذبَك!"

"مـ ـ ـ اذا؟!..... صرخَت اعماقُه باندهاشٍ عاصِف.

وكرَّرت: "أبي"، أبي."؛ واستمرت: "أبي، أبي" شعوراً منها أنَّه يتصرَّف معها كأبٍ. ولم يكن يتصوَّر هو أنْ سيحدث ذلك.

كان يريدها حبيبة له.

"أن يقول لها "حبيبتي".

"أن يناديها "حبيبتي".

إنَّ المواقفَ والمعطياتِ إذ تتشكَّل عكسَ ما يُراد لها تصبح بعدَ حين يقيناً لا يمكن الانتفاض عليه أو تجاوزه ونقضه. مفردةُ أبي المُنغَّمة على لسانها اربكت كيانه ، احدثت صعقةً رجَّت كبرياءه، أطاحت بالعشِّ الذي تخيله جاهزاً ففكَّكته وبعثرته وتركته يتهاوى من أعلى شجرةِ الأمل.

أدركَ أنَّها حين كانت تنتظره في البيت انّما تنتظره كأبٍ؛ وحين تتهيأ لتغيير ملابسِها والاستعدادِ للخروج معَهُ تتهيأ لمصاحبته أبّاً.. أيقنَ أنّه عندما اعتاد ترك بيتَهُ والتوجّه اليها قاطعاً الطرق وعابراً الشوارع فانه يتوجَّه كأبٍ تنتظرُه ابنته.

وكانت تلك طعنةَ سكين في خاصرة أملِه تمزّق حبّاً أراد منتهاه في بيت كان ينتظر زوجةً على مقاسِ مشاعره ورغبته في العيش معها على هناء بعدما فشل في زيجة اربكت حياته وتركته يتضوَّر ألماً، ويقارع شقاءَ قدرٍ صنعته أيدي الحُسّاد والمبغضين.

زادَ من خيبة أمله وانتهاء حلمه شعورُه بالهوَّة الزمنية العمرية التي تفصلهما. فعمرُه كان ضعف عمرها. لقد كان بعمر أبيها فعلاً... جاء قولها له "أبي" عدّة مرات كالقشّة القاصمة، كالصرخةِ في بريّة روحه ، كالهتاف له بالنظر لأعضاءِ جسده التي دبَّت فيها الشيخوخة، فتهالك.

لكنّه كان ينتفض. فلا يرى في الأعضاء المتهالكة هويةً لقتل مطمحه في امتلاكها.. لا يعترف بالنظرة السائدة التي تؤكد حضور الشيخوخة تطرق ابواب الستين . فنشر يوماً مَقالةً عنونها "في فلسفة الجسد والروح"، أشار فيها إلى أنَّ (الناس الذين يُسَمَون عقلانيين يتَّبعون خطى اعضاءِ جسدهم فيشعرون حين يرون هاته الأعضاء تضمر وتضمحل وتتغير اشكالها واحجامها أنَّهم شاخوا، مُهملين الروح؛ أو هم يكبحون شعورَ الروح ارضاءً للسائد في المجتمع الذي يشير إلى أنَّ الانسان اذا كبُرَ وتتالت سنواتُ العمر على كاهله ناءَ بثقل هذه السنوات، وأنَّه متوجّه الى الموت؛ الى الفناءِ الابدي... أمّا الناس العقلانيون فعلا فهُم من ينظرون إلى أرواحهم لا إلى اجسادِهم، مؤكِّدين أنِّ ارواحَهم تستمر شابَّةً تعيش في حيويةٍ؛ تقارع الزمن؛ فلا تهالك عضوي يؤثّر فيها، ولا تهافت زمني يعمل على تقويضِ رؤيتِها للحيوية المستمرة.. إنَّ شعورها الحق يدفعها للإقرار بشبابِها ويفاعتها، وحيوية الأنا الباقية.)) وكان هو يقف ليرى روحَه لمّا تزل شابَّةً؛ لها الحق في أنْ تُحب وتشقى، ثم تنال مآلها.

لكنَّ المآل انتهى بقولها له "أبي."

فصابرَ معها، وصَبر... واصلَ يخفي وجعَه، ويطمرُ حشودَ جراحٍ

تسبَّبت بها دون أن تفقه ما فعلت.

إنَّ الحزنَ ليطغى في قلبِه؛ وإنَّ السعادةَ لتتنامى وتكبُر في

نفسها... فقد صارت تطالبُه بتمديد فترةَ استمرارِهما متجولَين. تطالبه بزيادة الأحاديث، باستنهاضِ التاريخ، باستدعاءِ ثمارِ الأدب.

تنهل منه وباغتراف منقطع التصوِّر، هاتفةً: "ما أعظمَك مِن أبٍ!"

وكانَ كلُ هتافٍ يتفجَّر سعادةً من صدرِها يتشكَّل طعنةَ سكينٍ في قلبه.

طعنةٌ تدفع به الى الهمس أو التمتمة: هي من أخذت بيدي الى جنائنها ثم تنكَّرت لي فرمتني إلى هوَّةِ الضياع والبحث اللامجدي.. هي من ساقتني على سحابةِ استعذابِها فتصورتها مُمطرة ستسقي الروحَ شهد الرواء، وتحيل ما تبقى من العمر حديقةً غنّاء."

وراح يستنهض التاريخ ليذكّره برموزٍ كانوا في مسارِ الشيخوخة فدخلت حياتهم نساءٌ يافعات قلبت لهم نهاراتهم الغائمة والشاحبة والباهتة فحوَّلتها إلى فضاءاتِ جذلٍ وسعادة وهناء.

يأتي اليه الروائي خوسيه ساراماغو الذي كان بعمر الثالثة والستين فيبوح له أنَّ فتاةً بعمر الست والثلاثين اتصلت به على أنَها قارئةٌ لكتبه اسمها "بيلار ديل ريو" فالتقيا. وكان ذلك اللقاء فاتحة للقاءات عديدة انتهت بالزواج... ويأتيه الممثل كلينت ايستوود وكان بعمر الستين يصحب دينا رويز البالغة ٢٨ عاما وقد اقترنا حديثاً يرفلان على خمائلَ الهناء... تأتي أونا أونيل ابنة

الكاتب البريطاني يوجين اونيل بعمر ١٧ سنة ومعها زوجها شارلي شابلن المتجاوز عمره الخمسين يعلنان زواجاً اراداه نموذجياً... كذلك يأتي ريت باتلر الذي وقع في حب سكارلِت اوهارا، شخصيتان خلدتهما مرغريت ميتشل في روايتها ذهب مع الريح.. تطرق باب ذاكرته جين أير وهي الفتاة اليافعة تترك اللحاق بحملة تبشيرية دينية مُقرَراً لها أن تكون في الهند فتلتحق بأدوارد روشستر الذي تعلقت به كهلاً. ولم يكن بعيداً الممثل عبد السلام النابلسي الذي كان بعمر الستين واقترن بجورجيت ابنة العشرين، فعاشت معه ورثته حين توفي بدموعٍ من دم.

تتهافت الأسماء في ذاكرته فيندبُ حظاً دفع جميلة إلى النأي بعاطفتها ورؤاها في النظر اليه حبيباً يعجبها الاقتران به. ذلك جعله يتحسَّس من سلوكٍ تسلكه أو تصرّف ينتج عنها يحسبه يعبِّر عن استهانةٍ به أو لا مبالاة له.

***

يتوقَّف قليلاً ليراجع مَشهد مبارحتها البيت وغيابها دون أنْ تقول له كلمة وداع؛ دون أنْ تُخبِره بوجهة ستتجه اليها؛ دون أنْ تضع خَبراً عند المؤجِّرة مصحوباً بتاريخ العودة.

يتوقَّف وقد طفقت في عينيه دمعةٌ ما لبثت أنْ تدفَّقت بعدها دمعات شكلت سيلا أخذ مجريين على خدين ضمرا كثيراً مذ أوصدت البابَ الخارجي لبيتها وغابت.

وكان للغياب أسبابه.

يتوجه الى مجموعة رسائل كتبها الى ابنة خالتها، فيروح يقرأ وينشج. يقرأ ويسحب انفاساً عميقةً من سيجار ينتهي بسرعةٍ ليتلقف سيجاراً آخر فيمتلئ فضاء الصالة بدخان هو انفاس روحه المعتلج وقلبه الذي ظنَّه سيخذله يوماً عقاباً على ما فعل.

يتذكر وسط جيش الحسرات والالم الدفين من جاء ليقول له: "إنّها تستهين بك، وتشكِّك بعلميتك؛ بلْ تتندَّر من أقوالٍ تقولها وأفكار تؤكد عليها فتظهرها على أنَّها مسروقةٌ من أقوالِ وافكارِ كتّاب أجانب؛ وإنَّكَ تعتمد على اللغة الفرنسية التي تتقنها فتسرق كما ومتى ما تشاء وتروح تعرضها على طلبتكَ في محاضراتك أو في الحلقات الدراسية والفكرية التي تساهم فيها على أنّها من بُناة افكارِك وابتكرتها ابتكار المُفكِّرين؛ وأنها تراك رجلاً مجنوناً يعيش العزلةَ؛ ولا يرى في النزولِ الى الشارع إلا مضيعةً للوقت.. رجلٌ زرع في روحِها الحزنَ، واورثَها القلق."

وكي يزيدوا من حنقه عليها راحوا يضيفون: "وصارت تؤدّي حركات تمثيلية كوميدية تقلدك فيها أمام زميلاتها وزملائها قصد الاقلالِ من شخصيتك وطعنِك بما ليسَ فيك؛ وأنّها.....، وأنَّها.....".

ولقد أخذ هذا الكلام مأخذَ الجِّد لديه؛ فلم يتبع الطريقَ الامثل في المكاشفة معها قصد الوصولِ الى الحقيقية؛ ولم يتنامَ الى رأسه

أنَّها قد تكون نميمةً للإطاحة باهتمامِها به وعدّها النموذج الامثل للأساتذة الملتزمين الممتلئين حكمةً ومعرفة، أو هو فخٌّ أريدَ له أنْ يسقط في شراكِه فيعمَد الى كرهها والابتعاد عنها هي التي اعتمدت خطاه ورصانته وجدّيته فصارت كاتبة يُشار إليها، وصارت الصحافةُ تعتدُّ بما تقدمه للنشر لندرةِ اختيارها المواضيع المهمّة والافكار المُستجدَّة والرؤى التي تعمل على احداث تغيير في البنى الفكرية والادبية. بل قلبوا هذه الرؤية وهذا التصور الى العكس فطفقوا يقولون: "إنَّها وفي اكثر من مَحفل ومجلس ولقاء جماعي تتباهى بانَّ القراء يميلون لمقالاتِها أكثر ما يميلون لمقالاته؛ ويعدّونَ المواضيع التي تتناولها هي اكثرُ علميةٍ وتكثيفاً وغزارة وجدية وذات عمق بينما مقالاتُه فارغة المعنى وطوباوية؛ فقط حشوٌ في حشو، وثُرَّهات يمقتها القارىء الجاد والحصيف.

حسِبَ الكلام الذي سمعه صادقاً، يأتي من أشخاصٍ صادقين.. دعم ذلك رؤيته لها – أو هكذا خمَّن – اعتذارها الخروج معه حين يقترح عليها الخروج والتجوال ثم الجلوس في مكان يفصح لها عن جانب من جوانب حياة عاشها، ومواقف مرَّ بها. وكانت هي لهيفةً وشغيفةً للاستماع اليه وعدّه منهلاً معلوماتياً تأسس ونما وكبر اعتمادا على خبرة عقود من العمر الذي كالكفاح اليومي؛ لكن يحصل لها، في كثير من الأحيان، اعياءً جراء العمل الوظيفي ومتعلقات اليومي المعاش.

إنَّ النفوس مهما بلغت من الصفاء والنقاء تتعكَّرُ وتتلوَّث حين تمر عليها رياحٌ مُحملة بأتربةٍ ضارة؛ وإنَّ القلوبَ مهما جهدت أن تكونَ رياضاً مشرقة وطرية وخضراء يتهشم الكثير من اشجارها الغنّاء وتسقط ثمارُها اليانعة إذ يحين طقسٌ سيءٌ يكمُن لأيام.. فوسط تلك الأجواء والظنون خُيَّل له أنَّ ما سمعه حقيقة لا لبس فيها؛ فقد لاحظها في الآونة الأخيرة تدخل في حوار أو نقاش تنتقد بعضاً مما في مقالاتِه أو آرائه، وتقترح استبدالها بما تطرحه هي وتعرضه عليه.. انتبه إلى أنَّ ما كانت تنشرُه من مواضيع في الصحف والمجلات تلقى الترحيب والحفاوة، فيتنامى شيءٌ من الحسد في نفسه. فاته، أو هكذا هيمنت عليه الظنون وانسحبت العقلانية عن مكانها الموضوعي، ادراك أنَّ العقول تتطوَّر مثلَ الافكار، وأنَّ الاجيالَ تتناسلُ بما يجعل القادمَ أكثر ذكاءً ممن سبقه بحكم جدلية تطور الفكر البشري، وتغير متطلبات الحياة.. فاتَه أنْ يُقرَّ جملةً يقولها الحرفيون ولو ببساطة الرأي (الصانعُ استاذٌ ونصف)، وهي جملة بمثابة حقيقة علمية تؤكد فلسفياً مقولة (نفي النفي). فالأفكارُ التي تُستَجَدُّ وتخضع لقوانينها العلمية والموضوعية تزيح ما قبلها وتتقدمها وإنْ هي تولَد من رحمِها.

لاحظ أيضاً تكرر اعتذاراتها للقائه مُتعللة بانشغالاتها الوظيفية؛ وهي اعتذارات مشروعة لابد أن يأخذها بنظر الاعتبار فيعطيها الحق في طلب الراحة. لكنه تغافل عن الموضوعية فتمسَّك بكلام

الاستهانة والتندّر. فصارت الاوهام تكبُر في رأسِه وتتضخم.

راح يهملُها.. فلا يزورُها.. تسأل عنه فلا يسأل عنها. يتنصَّل عن احتياجات كان يهرع الى توفيرها بغيرِ ما تعلنُه بنفسها.

ولم تكتشف هي بادئ الأمر.

عزت ذلك لانشغالاته؛ فهو كثيرُ المَهام، ثقيلُها... لكنَّ غيابه لأيام، وعدم ايلاء كلامِها اهتماماً حين صارت تلتقيه وسَّع الهوّة بينهما.. واذ كانت تبعث له أو تتَّصل هاتفياً به لا يرُد.. يعد ما تفعله صورةً للتهكم عليه والتندّر وليس نبرة للاحترام الكبير والشوق العميم.

تجاوزت الاتصال الى نقل قدميها اليه فراحت تذهبُ الى ميدان عمله في الجامعة؛ وهناك تنتظر خروجه من قاعة المحاضرات، لكنه لم يخرج. يصل اليه خبر وجودها وانتظارها له فيبعث من يقول لها أنَّه مشغول في محاضراتٍ متواصلة ولا فسحة له للقائها.

وأذ كررت المحاولة وتكررَ على اثرِها الجفاء رست على يقين أنَّها باتت ثقيلةً عليه... ولقد ظنت أنَّ مقالاتٍ تنشرها وتسلط عليها الاضواء باحتفاءٍ خلقا نوعاً من الغيرة في داخله واشعرته بخطورةِ ظهورها كاسمٍ يُشار له.

ذلك الجفاء، وتلك القطيعة من جانبه أرستها على قرارٍ بضرورة الرحيل.

***

ما قالته المؤجرة له

حدثَ مرَّةً أنْ وصل جزِعاً الى باب الدار، وشرعَ بالطرقِ. فخرجت اليه وقد هالني منظره البائس... فتحتُ البابَ المُشترك ودعوته للدخول. وهناك فتحتُ غرفةً كانت جميلة جعلتها لتناول وجباتها والمطالعة عند منضدةٍ مخصصة للأكلِ، وكثيراً ما جلس هو على أحد كراسيها وتناول الشاي أو القهوة تعدها بنفسها وهي فرحة لحضوره.

سألني بلسان اللوعة وحرقة الفراق عمّا جرى لها، ولماذا رحلت، والى أين؟

وكان عليَّ الافصاحَ بما رأيت وأُعلن عمّا كان يحصل لها وما تقول، فقلت له:

بانقطاعِك عن زيارتها هجمَ على قلبها الحزن؛ وتسببت قطيعتك بإيلامها فجعلتها تذرف الدمع طوال الليل والنهار. باتت أمامي بفعل اهمالك لها ضعيفة ومرتبكة وخاوية؛ هي التي كنت عرفتها بوجودك قريباً منها قوية وجلِدة وصارمة.

صارت تشكو كثيراً من الفراغ؛ وصرتُ أشعر بافتقادِها حضورك لتأخذها كالعادة في جولاتك اليومية التي تنتهي بمجيئها محملّة بالهناء والانشراح.

أشرت عليها بشراء بلبل وقفص وتعليقه في النخلة المنتصبة

وسط الحوش لبثِّ الأنسِ ونشرِ الحميمية، تماماً كما فعلت العمّة مريم يوماً، ومن بعدها الفتاة حَمامة. تفتحت وردةُ وجهِها لمقترحي ووسعت عينيها؛ وكأنَّ كلامي فتحَ بابَ الامل لها، فقالت:

"لا أحبُّ الطيورَ مسجونةً في الاقفاص.. طيوري كتبي.. ألا ترين ذلك الرف المنعزل؟ كم تقدرين الكتب التي فيه."

"اعتقد تزيد على العشرين."

ابتهجت لتخميني، واسترخت ملامحَها تزيد من ارتياحها:

"تلك هي طيوري."

وبدت كأنَّ فكرة انبثقت في رأسها وارادت اختباري، سألتني:

"ماذا يسمى صوت البلبل؟"

"تغريد." قلت

"وصوت الحمام؟"

"لا ادري." قلت.. فأجابت:

"اسمه هديل... والعصافير؟"

"لا ادري.".. ومن جديد أجابت:

"زقزقة... تلك النغمات والاصوات تتراقص على رفِّ الكتب هذا.. لهذا جعلته قريباً من رأسي... اسمع كل هذه الاصوات الجميلة تنطلق من كتبِ هذا الرف."

طالعته المرأة المؤجرة مرتبكاً يبحث في جيبه عن علبةِ سجائر كما اعتقدت. فالدخان كثيراً ما أعان القلقين والمرتبكين في تبديد

بعض من القلق والارتباك.. وإذ لم يجد شيئاً يستعين به تكدَّر وجهه، وبدا كأنه يطلب الاشفاق على حاله. ولكي اشغله عن حاجته الملحة رحت اكمل كلامي:

((مع الأيام وتراكمها، ومع غيابك غير المبرر صرت أراها تتشبَّث بكتبِ الرفِّ. لم تولِ اهتماماً للكتب الأخرى.. وإذْ ادخل عليها وهي نائمة اشاهد أحدَ كتبِ الرف عند وسادتها.

لقلقي عليها، ومن أجلِ اشاعةِ جوٍّ من الرفقة معها لتبديد ثقل الفراغ رحت أدخل عليها من الباب المشترك بين بيتينا، هذا الذي ادخلتك منه.

ورحتُ أصرف الساعاتٍ الى جانبها: اطبخ لها وجبة العشاء حين اجدها منهمكة في الكتابة؛ اغسل الصحون على قلتها عندما أجد الضرورة تقتضي ذلك. وكانت هي تمطرني بكلمات الشكر وتردد: أنت أمي.. نعم، كأمّي البعيدة.

كنت ازورها ليلاً حين يجافيني النوم، وأجلس الى جوارها في الغرفة وهي تكتب، وتملأ الصفحات. تشعر بالسعد عندما ترفع عينيها عن الورق وتراني الى جانبها.

وعندما كنت أعدُّ لها قدح كباتشينو تحبها اثناء انهماكها بالكتابة تمطرني بكلمات الشكر، وهي تردد: لا ترهقي نفسك.

فأقول لها: لا داعي لشكري، فهذي عادة اتبعتها مع من تستأجر البيت. فكل من جاءت واستأجرت كانت لها هموم تعتاش

معها لذا اقدِّم لهن شيئاً من الخدمات برضا وبطيبِ نفس.))

فرحَ بما سمع، واستنتجتُ من اصغائه وفرحه انَّه يريد الاستماع لما كانت تفعله في البيت، فواصلتُ القول:

((حدث مرة أنْ استدارت دون أنْ تنهض من كرسيها؛ فقط جعلت المنضدة خلفها وصارت بمواجهتي ورايتها بنفس غمرتها البهجة بعد عودتها من مصاحبتك وكتابتها ما يزيد عن سبع صفحات.. قالت:

"لم تحدثيننني عما صار مع مستأجراتك السابقات. كيف ومتى تركن البيت."

وجدت في عينيها رغبة لما حصل؛ ورحبت أنها ستضم اسمها الى قائمة المستأجرات. ولا ادري إن كانت تدرك نهاية وجودها في البيت.

قلت لها:

"لقد تزوجت حائكة الازر لكنها لم تنجب.. الرجل الذي اقترن بها قَبِل من أجل سعادتهما شرطَ عدم الانجاب بعدما اطلعته أنَّ الانجاب يُنهي فاتورة عيشها في الحياة.. صار في عيشها معه ورعايتها له يرى المعوض عن الاولاد.. يداري حالها بمهماتِ رجلٌ مطيع، ويمارس حياته معها بحنو طبيب اوكل اليه واجبُ مداراة قلبٍ عليل.

وكان حزين وحمامة يزوران البيت بعد زواجهما. يطوفان بين

الغرف والفناء.. يطالعان شجرة النخيل التي غرستها العمّة مريم، ويستذكران تغريد البلبل في قفصه فيضحان. ينظر احدهما الى الاخر فيتحاوران بلغة العيون. وافهم انهما يقولان كان القفص هنا؛ وكان البلبل انيسنا في محنتنا. وكانت عينا حمامة تدمع لأنها تتحسس انفاس عمتها تطوف في فضاء البيت؛ تسمع آهاتها، وتترجم البكاءَ المرَّ الذي كانت تبكيه وحيدة لا أنيس لها. قليلاً وتروح تطالع مكان الكوّة التي خزَّنت فيها جهاز التسجيل والاشرطة. وكان حزين رغم الالم وشعوره بضرورة انتشال حمامة من المعاناة وايقاف دموعها الا انه يشعر أيضاً أنَّ العمة مريم تستحق أنْ تُذرف من أجلها الدموع لذلك ترك حمامة تبكي حتى ملَّت البكاء وادركت أنَّ دموعها رسالةُ وفاءٍ طويلة لعمَّتها. لذلك حين خرجا وودعتهما عرضت عليهما ترحابي العميم لزيارة البيت متى شاءوا ورغبوا.

واذ انتهي من حديثي تبتسم جميلة ابتسامة مقتضبة، وتعلِّق: ويوماً ما ستتحدثين عنَّي كمستأجرةٍ أخرى وتقولين أنَّ بنتاً جاءت الى هنا مع ابيها واستأجر لها البيت لتسكن وحيدة. عاشت مع الكتب؛ صارفةً الوقت تقرأ وتكتب... وربما ستتحدثين عن دموع اهرقتها تسبَّب بها أبي الجاحد.

وفي ليلةٍ حسبتها واحدةً من ليالي حزني التي لا تنسى وجدتها منقبضةً، مُنكبَّة على الورق تكتب؛ تقضي الكثير من الوقت في

سهومٍ كأنَّها تبحث عن كلماتٍ تصبّها لتبدِّد ما في صدرها من غيوم الكدر.. كانت متكدرة فعلا. تتعثر بكلمات تكتبها على الورق.. تلك كانت المرة الاولى التي أراها في ذلك المشهد العنيف من الحزن والانقباض.

فاضت روحُها بما كبتت كما يبدو الكثير من الحزن، وتجاوزت برازخ آلام جراح لا حصر لها عندما انفجرت باكية. هي التي عهدتها صلبة قوية، وحسبتها جداراً صلباً تتهشم عليه حكايات وتبعات عدم زيارتك لها.

لحظتها بوغتُّ بألمٍ يشق صدري فأشهق: "ماذا بك، يا ابنتي.. ماذا بكِ؟!"

من بين جفونها الغارقة في الدمع، والشفتين اللتين طفقتا تختلجان نطقت:"حزينة.. حزينة، يا أيتها المرأة الحنونة.. لقد تجنى عليَّ.. كل ما كان يقوله من رعاية وما يعد من اهتمام لا أساس له.. لو كان يبدي رعايةً حقّاً لفرش الدرب امامي بورود الدعم كما ادّعى كثيراً، ونثر لقاح تذليل ما يعيق حصولي على مرادي ومبتغاي.. لماذا يغيب عني ويتركني للوحدة والعذاب، والجزع؟"

وألمحها تكتب على الورق:

"إنَّ القلبَ لَفي حزنٍ؛ وإنَّ يوميَ لَفي جَمر والتياع".

وأروح احاول التخفيف من أوار قلبها المستعر، وتبديد جزعها

الطافح من عينيها دمعاً:

"إنه أبوك، يا ابنتي. ولا بد أنَّ ما يتمناه لك هو ما لا يريده أن يؤذيك. إنَّ الآباءَ ليشعروا أنَّ ابناءَهم أرواحُهم وقلوبُهم، وإن لم يدرك الأبناء ذلك. ويحتاجون لهذا القول احياناً فيحسبونه هيمنةً من قبل الآباء عليهم. فهم يريدون لحياتهم الخصوصية، ولقرارهم الاستقلال."

طالعته وهو في أشد حالات الانصات، وفي أعتى مراحل الشعور بتعنيف النفس. تراءى شخصاً على وشك الاقرار والافضاء بكل ما تسبب في أذاها وجرحها وغيابها، فقررتُ مواصلة الحديث:

ويوما ما تكشَّف لي ما لم ادركه، فأوقعني في دائرة الشده وغمرت الدهشة قلبي وأرتني مشاعر تنعم بها مخلوقة من طراز خاص.. مشاعر لا يتحلّى بها الا الملاك ... تكتب في احدى صفحات كراستها وقد كانت في أشد غضبها:"لم أعُد انظر اليكَ أباً. لقد قتلتني."

وتنهال بكثير من كلمات التعنيف والتقريع لا حاجة لذكرها. زرعت في داخلي شعور أنَّها كانت في اقصى درجات الغضب عليك علواً، وأدنى حالات الهدوء والسكينة في مخاطبتك. حدست انك اغضبتها بما لا يدع لها الامساك بزمام لسانها... كانت الكلمات الثقيلة تتوالى من فم قلمها، بحيث تخيَّلتُها تكتب دون

وعيٍ منها، دون أن يكبحها القلم فينكسر، مثلاً، احتجاجاً على ما تفوه به لأبٍ رعاها طيلة وجودها في المدينة، فلم يهمل طلبا ارادته، ولم يطفىء حلماً لها تمنّته.. كانت عبارة "لقد قتلتني!" تتكرر بعد كل جملة أو عبارة، ما جعلني اقدِّر هولَ الألم الذي أحدثه صدودك في قلبها. أنا التي عرفتها شابة طيعة، وديعة، صبورة... يا لصبرها الذي لا يضاهيه صبر. فقد تحملت بُعدَك ما يزيد على السنة والنصف. فعاشت وحيدة إلا من رسائل الشوق والمناجاة التي تبثها؛ ونهران الدمع التي لم يوقفها مرور الأيام وتعاقبها... وكنت أنت لا ترد، لا تكلِّف نفسك مهمّة كتابة كلمة... رأيتها تكتب مرة: "ما هذا التغاضي والاذلال منكَ! وما هذه الوداعة والصبر منّي.".

لقد ظننتك ميتاً. والميت لا يجيب. وكنت لأكثر من مرة اهمُّ برجائها أن تنساك؛ فالموتى لا يعودون.. أردت أن اقول لها: الموتى لا يعودون، يا ابنتي، فما بالك تناجينه كأنَّه حيٌّ يُرزق.".

وكانت كأنّها حدست ما اريد قوله فينساب من عينيها نهران يأخذان طابع الدفق بعد حين. فتروح تحضن كفّيَ المرتعشة بكفّيها المغموسين بفتنة البياض اليانع:"إنه حيٌّ يُرزق، يا خالتي.. حيٌّ يُرزقُ لكنَّه جاحدٌ ومتجبِّر.. تركني وسطَ عاصفة الزمن اللا يرحم. جعلني أسيرَ الوحدةِ، ومقارعةِ اشباحِ القلق.. جعلني أتوجه الى اصدقائه ومعارفه سؤالا عليه. وكان هو بجحوده وجبروته

يطالبهم أنْ لا يستجيبوا لدعوتي وسؤالي عن وجوده ".

اواصل قراءتي لما كتبت: "أبي وأمي وأخوتي هناك، في مدينة بعيدة.. وأنا هنا، في السماوة عشتُ معه.. هو أبي الأدبي."

توقَّفتُ مصعوقة لعبارة "أبي الادبي." ولجملة "أبي وأمي وأخوتي هناك."

أيكون هذا الرجل الحنون ليس أباها فعلاً؛ وأنَّ اباها الفعلي في مدينة أخرى مع عائلة متكاملة؟!

مهلاً.. مهلاً. قلت في سري؛ لأكمل قراءة ما كتَبَت:

"جعلتُه فناري الذي استدل بضوئه للوصول لشاطىء الثقافة التي ابتغيها، والمعرفة التي تنده بي أن أجيء لاغترف من كنوزها... أبي وامي وأخوتي هناك؛ في الضفة البعيدة. وأنا وإياه هنا في هذه الضفة التي صوَّرها لي في محاضراتٍ له نهلتُ منها وتشربتُ وشبعتُ حتى ثملت. وكنت سعيدة أيَّما سعادة. وكنت هانئة لا يضاهي هنائي كلَّ هناء الارض. وكان هو بشوق الأب الحاني على ابنته يضمُّني بجناحيه فأشعرُ أني مخلوقةٌ أنزلها الله ملاكاً إلى الارض وجعل هذا الرجل الذي هو أبي قيّماً علي. يمهد لما ابغي، ويحقق ما اريد."

وفي فراغ تركَته بنقاط أخذت من الورقة ثلاثة اسطر كتَبَت: "لا ادري ماذا دهاه؛ ما الذي غيّره... يغيب لأيام ثم يعود بوجه متكدر.. أسأله فلا يُجيب. اختصرَ ساعاتِ خروجِنا وجلوسِنا عند

النهر من ساعةٍ، فنصفٍ، فدقائقَ. ينهض مُتطيّراً كأنَّ شيئاً ما ينبثق من وسط النهر فيرعبه. ينظر حوله بتوجّسٍ، ثم يَجرني من يدي:" لنعد الى الشارع.. لنصل الى الأضواء."وأنا وسط حيرتي أسأله: ماذا بك، يا أبي.. ماذا بك؟.. لا شيء حولنا يستدعي ارعابك وتطيّرك." فيروح بلسان الرِهاب والقلق المُشتعل في رأسه يتمتم: "أرجوك؛ ارجوك.. لنخرج من هنا."..حتى أغضبني مرَّةً فهتفت محتجَّة في وجهه "أنتَ تقتلني بتجبِّرك والاصرار على رأيك.". ذلك أول وآخر احتجاج يتلقاه مني. أنا الذي ما تفوهت يوماً بما يغيظه، ولا توجهت تربيتي التي تربيتها عند أبي وأمي، هناك في المدينة البعيدة، إلا لإرضائه.. نعم؛ كثيراً ما غضبنا؛ كثيراً ما تجادلنا، وكان صراخُنا يعلو. لكن أنْ يصل تطيّرُه الى تركي لوحدي، الى تغيبه عنّي، الى جَهلي به أينَ يكون فهذا ما لا يخطُر على البال. هو الذي لا يمر يوماً إلا وجاءَ يتفقَّد الصغائر قبل الكبائر؛ فيروح يطالع ما أكلت وما شربت؛ ما طبخت وما لم اطبخ.. يتفرَّس في القدور لمعرفةِ طبيعة الوجبات التي تناولتُها ومدى فائدتها العضوية لجسدي.. يقلق إنْ أبصرَ ما لا يريحه من وجبة يظنُّها غيرَ نافعة.. يطالعُ ما لبِست، مُختبراً وسامتَها ولياقتها لقوامي الذي يقول عنه طويلاً ممشوقاً، فهو يكره النساء البدينات ويحسبهن بلا ذوق، يصفهنَّ كالجواميس، ويقول عنهنَّ أنهنَّ جبالٌ من المَعِدات المهولات والامعاءِ التي لا طول مُحدَّد لَهنَّ.. يسألني

عما أزعجني خلال وجودي في دائرة عملي أو اثناء مروري في الشارع."

توقَّفتُ عن الكلام لأتمالك اتزاني، فقد ابكتني هذه الفتاة أكثرَ من أيَّةِ مُستأجرةٍ سكنت البيت. كانت شديدةَ العاطفة، طيبةَ القلب، تتحلّى ببراءة لا تملكها سوى مَن جمع الله في قلوبِهم طيبَ روحه. لقد آلمتني جداً جدا في تلكَ الليلة.

وجاءتها شهقته؛ وجاءها سؤاله المفاجيء المُخضَّب بوحلِ الجزع:

"أيَّةُ ليلة؟.. ما الذي حدثَ لها في تلك الليلة؟!"

"تلك الليلة المطيرة المدلهمة والرعد يزبد ويرعد في السماء، والسماوة تغرق في طوفانِ مَطرٍ لم تعهده، صاحبته رشقات من بَرَدٍ كبيرٍ وثقيل، ساورتها وحشةٌ وأسى؛ وشعرت أنَّها بحاجة إليكَ. فقد اعتدتَ زيارتها في مثل هكذا حالات من شتاءات الأعوام السالفة فتسعد لحضورك.. تهبُّ داخلةً الى المطبخ لتعد لك الشاي الأخضر الذي تحبِّذ شربه عندها من يديها ساخناً، وتشاركك في ارتشافه رُغم أنَّها لا تستسيغه. لقد اعلمتني انكَ تعلمت شرب هذا النوع غير المألوف عندنا يوم كنت في الجزائر تعمل مدرساً في احدى واحاتها وسط البلاد. هناك وجدتَ الناس يتناولونه بتلذُّذٍ، ويعمدون على جعله مشروبَ الحوارات الحميمية برغوتِه التي تعلو الاقداح حين يجتمعون في مناسباتهم الاجتماعية؛ وما اكثرها.

تلك الليلة نهضَت بعد جزع؛ ومن بين طيات كتابٍ أخذَته معها الى الدائرة للتسلّي بقراءته وقت الفراغ استلت رسالةً استلمتها قبل يومين من ابنة خالتها، تلومُها على فعلٍ ارتكبته وقرارٍ رأت فيه ابنة الخالة خطأً اتخذته بينما وقفت صديقتها موقف الحياد وإن هي في داخلها كانت تقف مع جميلة.. أفردت الورقة الزرقاء الفاتحة بأسطرها الرمادية الخفيفة وطفقت تقرأ صحبة قلبٍ يختلج وكفَّين ترتعشان، وعينين تهيأتا للدمعِ الدفيق:

"ما الذي دعاك لتركِ مدينتِك والعيشِ وحيدة؟.. ولماذا تتحملين تبعات فراق عائلتك؟.. عودي الينا واتركي كلَّ شيء..اتركي حلماً لم يتَحقَّق.. احلامُك مع من جعلتيه رائدَك سوف تتبدَّد؛ وما ارتأيته في تحقيق أمل الوصول الى مبتغاك لن يستحيل حقيقة."

كانت تقرأ وتبكي.. تبكي وتتمتم: "لا أقدر!.. لا أقدر.. روحي هنا.. روحي هنا. والحقيقة استحالت بيدي. فهو حنونُ، عطوفُ؛ أبٌ.. لكن لابد أنَّ هناك مَن دخلَ حياتِنا فغيَّره؛ مَن تسلل إلى حقلِ طيبه فأفسدَ الزَّرعَ، وهشَّم سنابلَ رضاه عنّي، وتضحيتُه لأجلي."

وتتساءل في خاطرها وهي تذرف الدمع:"ماذا تقول صديقتُكِ عني؟".

وكما لو أنَّ ابنة الخالة تلقَت السؤال عبر خاطرٍ خارقٍ وخاطفٍ قرأت الرد:" صديقتي تقول أنَّك واهمةٌ في ثقتك المُطلقة

به. فالرجالُ حسبما ترى لا يُعتَد بهم؛ ولا يوثقون."

ردَّت متمتمة، والدمعُ شكَّلَ سيلين أخذا مجرييهما على وجنتيها المحمرتين:: إلّا هوَ!.. نعم إلا هوَ، يا وفاء... هو أبي الأدبي. لم يؤذني يوماً. لم يُسمِعُني مرَّةً كلاماً جارحاً. كان أباً تجمعه الكلمةُ بكلِّ معناها، واكتنازِها، وفحواها.."

واختلجت مثلَ طفلٍ يختلج عندما تأخذه أمّه إلى صدرها فتنهي بكاءً مرّاً؛ أو حين يأخذ بيده أبوه فيربت على ظهرِه، ويهمس في أذنِه بكلماتٍ تُكبِرُ فيه بطولةً وقوةً واقتدار.

تسترجع اهتمامَك الكبير بها، تسترجع ما كنتَ تقرن من ملاحظات وما تستدعي من وسائل تعينها على الكتابة المتماسكة واختيار مواضيع أدبية تناولتها في ما بعد في مقالات شكَّلت بعد فترة من الزمن أهمية لدى القراء، ثم الأخذ بيدها وايصال ما تكتب الى الصفحات الثقافية وتزكية تلك المقالات عند مسؤولي الصفحات الذين يرون فيه الرائدَ السديدَ الرأي، الكاتبَ الذي لا يُجامِل ولا يُهادِن.

تسترجع هذا فيتراجعُ حقدُها عليك؛ لا تريد ان تكون جاحدة فتقتل الاب الذي رعاها فتنظمّ الى طوابير الذين تعلموا من آبائهم ثم مارسوا خطيئة قتلهم.

لذلك كانت تضغط على قلبها وتستدعي الصبر على بعدِكَ وهجرانك متأملة ستأتي يوماً تراجع فيه فعلكَ غير المبرر... لكن

ذلك لم يحدث؛ ولم تعُد لها حتى وهي تبعث اليك راجيةً زيارتها، ومصاحبتها الى أماكنَ زرتموها ومصاطبَ جلستم عليها، ونهراً كنت تقول عنه أنَّه كحياةِ أيِّ مخلوقٍ يهنأ لِمَن يأتي ليكلِّمه، ويسعد للزوارقَ التي تنساب على جسده ولضربات مجاذيف الصيادين وهي تدربك على صدره.

وحين صرتَ حُلُما لا يأتي حتى في المنام، وصار وجودُها يشكو الفراغَ وحياتها داخل البيت مَحرقةً لقلبها اتخذت قرار الغياب.))

شاهدت العجوزُ سيلين من الدمعِ يجريان على خدَّيه الضامرين؛ شاهدت صورَ الندم تتدفقُ من عينيه فتسقطان أرضاً مُتهشمةً ؛ شاهدته يرحل في ذهول يسترجع ايامهما السعيدة وهما يصرفانها بجذل كأنَّهما في بستانٍ وفَّرَ فيه الله كلَّ متعَ الحياة ولذائذَ جنَّةٍ وعدَ بها المؤمنون به.

تلك اللحظة، ومن بين السيلين من الدمع أفشى أنَّ تطيرَه منها وجفاءه لها تولد وتوالد جراء ضغينة مَن أزعجهم اهتمامه الأبوي بها، وتعلّقها هي به تعلقاً يصل حدَّ الوله؛ فراحوا يحاربونه بأضعف قطعةٍ من قلبه. يتجاوزن عليه بغيةَ اذلاله.

لا أدري كيف ومضت فكرةٌ في رأسي وأنا اتَتبَّع دموعَه المنسابة وهي تتقاطر على ياقة قميصه فتتبلَّل وتنزل الى صدره، فقلت: لماذا لا ترسل رسالة الى ابنة خالتها تسألها أين تكون جميلة..

لابدَّ انَّها تعرف لانَّهما تتبادلان الرسائل.

تهللَّ وجهُه، وندَّت ابتسامةٌ عريضة من بين شفتيه:

"وكيف لنا بالعنوان؟"

"إنَّه هنا!."

نهضتُ سعيدةً لِما قُلتُ ورحتُ اسحبَ جاروراً من خزانةِ ملابسِها الصغير واستخرج عدداً من الرسائل بمظاريفها.

"خذ اكتب عنوان ابنةِ خالتها عندك، وراسلها."

في الايامِ التالية تتالت رسائلُه الى ابنة الخالة، وتتالت. ولم يأته جواب.

حدس الأمر من بابِ أنْ لا رأي لابنةِ الخالة ولا تأثير عليها. لذا ظلَّ مثابراً على الحضور الى البيت استعادةً للذكرى، وشعوراً بإشباعِ نزوع.

وفي بيته كان يُعزّي النفسَ بكتابةِ الذكريات، واسترجاع أيامِه الخوالي معها.

(٧)

في ذاكرتي أنهارٌ تَمشي
وكركراتُ أطْفالٍ
هي صَفحاتُها
أَضربُ على صَدرِ الصَّباح
فأسمعُ موزارت
وأقرأُ سبينوزا

العودة

كعادته اليومية جاءَ ينوء.. يتكلَّف في مشيهِ؛ وهو يدري أنْ سيطرق ويطرق حتى تكلُّ كتفُه؛ وسَيهبُّ الصغارُ المنشغلون بلعبةِ الحبور في الزقاق ليقولوا له: لا تطرق.

ستنتزع الفتيات عباءاتهنَّ من مساميرِ تعليقها ويهرعن اليه خارجات وقد تركنَ نوافذَ كُنَّ يطالعنَ من وراء قضبانها الحديدية فضاء الزقاق، ويهمسن بأذنه: كفى طرقاً يا عم، كفى.

لكنَّه هذه المرَّة لم يلمح الصِّبية يهبّون اليه؛ ولم يُبصر الفتيات وهنَّ يخرجن يطالبنه بالكفِّ عن الطرق إنَّما شاهدَ وجوهَ الصبية بعيونٍ تشعُّ، والفتيات من وراء قضبان النوافذ يقفنَ وفي عيونَهنَّ ألقُ الفتياتِ السَّعيدات.

عند الباب الموصد ما أنْ طرقَ أولى الطرقات حتى فوجىء بالوجه النيِّر، بالعينين الضاجَّتين بسعادةٍ ملائكية، بالذراعين منفردين وهما يهمان باحتضانه، بالقلب الذي قفز من بين أضلع كانت تنتظر حضورَه؛ وكلمة "أبي.. أبي!." تتهافت كالمطر.. "أبي.. أبي." كرذاذِ العَسجَد تنثره شمسُ الضحى.. "أبي.. أبي." ككورالٍ ينطلقُ من حناجرَ امتلأت بفيوضِ النَّغم العذب.."أبي.. أبي." يا نوراً شَرِبتُ منه وشَرِبت، وشَرِبت؛ وما ارتويت.." أبي.. أبي."

وكانت "أبي" متواليةً من الشوق العظيم، من الحبِّ العَميم، من الفَيض النوراني، من الحنين المتفجِّر، من الرغبةِ بالعناقِ الطويل، من الولهِ الذي لم تَكفِ معلقاتُ الشِّعرِ السبع التعبير عنه. قابلها هو بقلبٍ عَليلٍ يُطلِّق شوقَ الروح:" ابنتي.. ابنتي!" يا نورَ الصبح الوضّاء، وفيضَ بهاءِ الله الماطر رحمةً؛ يا ذَهَبي المُصفى، ويا قصيدةَ المُحبّين، وأخبرها وسطَ دموعٍ تفجَّرت في عينيه أنَه نادمٌ، ويعتريه شعورٌ بتأنيب الضمير.. يُردِّد وهو يحتضنُها بذراعيه الناحلتين، ويغمرُها بأنفاسِه الساخنة: كنتُ جاحِداً، ومُتجبِّراً، وخئون. كنتُ أعمى اتعثَّرُ بالهباء، وأصمَّاً لا يُحسِن سمعَ تراتيل السماء.. لقد اكتشفت أنَّ جلَّ ما قالوه مَحضَ افتراءٍ، وسيلاً من كَذب.. وأنَّها بشفَّافيتها وخلقِها وحسنِ تربيتها لتربأ عن هكذا اقوال، عن هكذا سلوك.. إنَّها نتاجٌ له.. صورةٌ مُستنسَخةٌ عنه. فكيف

انطلت عليه الحيلةُ وكيف تقبَّلَ الكَذِب؟

***

بعد أيامٍ؛ صارا يخرجان كما تعودا فيمرّان في الدروبِ ويقطعان الشوارع؛ يقفان عند النهرِ، ويتأمَّلان.. يستعيدان ذكرياتٍ مرَّت حفرتها الأيام على صوانِ ذاكرتِهما. يطالع أحدُهما وجهَ الآخر.. هي تنظر الى ما خطَّته الأعوامُ من آثارها على التقاسيم والملامح فتستعيد صورةَ ذلك الرجل الذي لاحقته في جميعِ اعماله وحفِظَت عن ظهرِ قلبٍ مُعظم ما كتَب ودوَّن وما قاله شفاهياً في الجلساتِ والمحاضرات التي يكونُ هو مهمازُ نجاحِها.. وهو ينظر للإشراقِ الذي يتعالى من تقاسيمها، وللبِشرِ الذي تتحلّى به ملامحُها. ينظر لتلك الفتاة التي همَست له من وراءه فاستدارَ ليغطسَ في بحيرةِ الهيام، ويعيش أيامَه اللاحقة على أملِ الأخذِ بها وقيادتها لتكون كاتبةً تُفجِّر موهبتَها التي اكتشفَها روضاً ثرَّاً من عذيبِ القول، وغابةً كثيفةً من معرفةٍ جمعتها بوئيدِ الخطو كيما تكون قادرةً على الاجابةِ لِما يحيطها من اسئلةٍ واستفهامات.. يضمُّها الى صدره وهو يُتمتِمُ.: ابنتي.. ابنتي.. ما أحلاكِ.!"؛ بينما تبوحُ هي بالصوتِ المسموعِ وبنغمِ تريدِه يسري في مساراتِ روحِه "أبي.. أبي.. ما أبهاكَ وأعذبكَ!".

المفارقةُ المثيرةُ للشوقِ والانتباه تمثَّلت بأنَّها في الاسبوعِ الاول من عودتِها إلى البيت ولقائها به هيَ من صارت تحكي وهو

يستمع.. هيَ مَن توشوش في أذنِه وهو يهيمُ بالوشوشة.. هيَ من أخذَت زمامَ القصِّ وهو المنصتُ بالروحِ اللهيفِ والقلبِ الطفلِ المتشوّق لسَماعِ القصصِ بلا مللٍ.. فلم يعُد هوَ ذلك البستان العاجّ بالثمر اليانع، ولا الطير الصادح بهارموني انغام ترقص لها الطيورُ، وتحتفي بها ألوانُ الطبيعة. لقد نهلت من فيضِ خزينه المَعرفي، واستلهمت تجاربَه الوفيرةَ في قافلةِ الحياة؛ ثم تجاوزته مَعرفةً يوم دخلت غابةَ الفلسفةِ فاتَّخذتها مِنهاجاً لمعرفتِها الحالية، وبحوثِها المستقبلية.

انبهرت بحقلِ ورود هوسرل ودعوته إلى الاهتمامِ بظواهر الوعي وأفعال الفكر.. وذابت ثملة تمشي بخيلاء وهي تتشبع بطروحاتِ كير كيغارد بما يتعلق بنظرته إلى الحرية والغواية والحب والتكفير.. تتابع رؤى هيدجر الفلسفية في تناوله علاقة الوجود بالزمان، منطلقاً من أن الوجود يمثله الانسان بوصفه مخلوقاً موجوداً.

صارت تقول مقولاتٍ مستلة من ثقافتها العالية وكفاحها اللامحدود في اغتراف معرفة تنتجها امم الارض في المشارق والمغارب..

صارت هي مَن تختار الليلَ بنقائه وصفائِه فترافقه حييّاً رخيّاً طيّعاً.. يتهادى معها جذِلاً، مُفعَماً بسعادة غامرة.

ما عادت ترافقه فيأخذ بها حين ينتهيا من اجتياز شارع

المطـاعم يمينـاً، بـل صـارت تختـار جهـةَ الشـمال حسـبما ارتـأت؛ فيروحان يخطوان على أرضية الرصيف العريض للكورنيش الذي يزهو ببلاطاته الخضراء الداكنة والناصعة، وبأشجار السدر العالية وهي تشكل ظلالاً بخثرة محببة لمن يود الحديث الطويل أمام نهرٍ يغدق هدوءه وصفاءه.

يمـر بـائعو المكسـرات والحَـب، بـائعو السـجائر، حـاملو دلالِ القهوة، بائعو الشاي في الترامس الكبيرة وهم يؤدون حركاتٍ الغاية منهـا لفتَ انتبـاه المارَّة أو الجالسين علـى المصـاطب أو المتكئين على الدرابزين المطل على النهر بغية الشراء.

تؤمـيء لبائع الآيس كريم الجوّال فتبتاع لها وله مخروطين من كِـريم متجمِّـد بـألوانٍ تتبـاهى بألقهـا.. يحـاول الاعتـذارَ عـن تقبّلـه والتنصّل عمّا تريد دفعه له ليلعقه بشهيةِ مَن بعمرِها.. يقول لها: "إنَّ مـا نفعلـه شـيءٌ مـن الجنـون؛ قـد يسـتهجنه النـاس."، فتـردُّ رافضـةً، وبتَحدٍّ:" ولماذا لا نقول أنّه من فِعال العقلِ الواعي الذي يفضِّل الوقوف بمواجهةِ التحديّات الاجتماعية.. إنَّنا نمارسُ سلوكاً لا يضرُّ الآخرين.".

وتحاول قلبَ الموضوع الى الدعابةِ، فتقول:"يكفي لعطرك هذا الذي يضوع من وجهِك جعلهم ينسونَ أنَّ ما تفعلُه سلوكاً يَخصُّ الأطفال." وتُكركِر من بين أسنانٍ كالبَرَد.

في الاسبوع الثاني أخذته الى شارعِ المَعارض حيث المتاجرُ،

وقاعاتُ الجِّم والرشاقة، ومحلاتُ بيعِ الموبيليا والبسط والسجاد، وثرياتُ الكريستال. وحيث اقتربا من "متجر النصر" اقترحت عليه الدخول. ولم يَطُل تطلّعهم لمعروضاتِ الطابقِ الأرضي سوى دقائق عندما ارتقت به الى الطابقِ الثاني حيث الملابس الرجالية.. هناك وقفا أمامَ صفِّ القمصان المُعلَّقة بطريقةٍ مُثيرةٍ.. مدَّت يدها الى صفِّ قمصانٍ بمربعاتٍ كبيرة متداخلةٍ وألوانٍ متناسقة. اختارت واحداً، وراحت تتأمل حجمَ مَقاسه عليه؛ ثم انتقلت إلى بنطلونات السموكِن الرقيق بالخط العمودي الذي احدثته المكواة ، فاختارت واحداً بلونٍ جوزي فاتح. وإلى معرضِ الأحذية الجلدية الكتانية والترينشوز ارتأت حذاءً كتانياً واطيء الكعبين. قالت وسطَ دهشتِه وتساؤله الدفين: "سيكون مَلبسُك من الغَد هكذا.. أنتَ ما زلتَ شاباً، فلا تجعلَ الأعوامَ تُملي عليكَ فكرةَ الكبر والشيخوخة."

في الاسبوع الثالث أعلمته أنَّها ستترك البيتَ مقترحةً السكنَ معه. فأهدت كل ما في البيت من عفش وأثاث إلى المؤجِّرة.. فقط نقلت مقتنياتها من الكتب.

ولم تمض غير أيام حتى قدِمت العاملةُ البنغالية.

في الاسبوع الرابع اخبرته أنَّها ستعود الى عائلتها... هناك حيث سيكونون بانتظارِها. واعلمته أنَّها ستلتقي كثيراً بابنةِ خالتِها وصديقتِها.. وستحدثهما عن تجربةٍ انسانيةٍ كان هو بطلُها، وكانت

هي تلميذتُه المريدة.

في آخر اسبوع قبل فراقهما كرِّسَت جُلَّ وقتِها لمرافقته مسحوبةً برغبةِ اعلامِه أنَّها لن تنساه، فقد صارَ هو لها المُهدي والهادي، وصارت هي لا تعيش إلا على فيضِ ذكراه معها، ولا تهنأ إلا بفصولِ حنانِه وطيبِه ورعايته لها.

صارت تخرجُ معه. تدخل السوقَ المسقَّف فتبتاع لها ما تحتاج، وتشتري له ما تود اهداءه اليه.. تدور في الشوارع رفقته، وتدخل معه في الأزقة والمنعطفات.. تصرفُ ساعات العصر متماهيةً مع كلِّ لحظة تمرُّ معه..

حتى اذا ارتويا من رؤيةِ المارّة والاشياء أرسيا وجودهَما عند "متنزه الوردة" حيث الغروب يعلن انتهاءه ويتَّخذ الظلامُ دورَه، صاعداً من جوفِ الأشياء؛ وتواريه من أمام المصابيح التي تفجّر ضوءها فتشعُّ الاشجارُ وتينع وتلتمع الأرض المُعشوشبة جراء الضوء.. تطلقُ (هي) قهقهةَ السعادة بوجوده الى جانبها بينما (هو) يملأ قلبَه بالجذَلِ ويسعد لرفقةٍ ما ظنَّها ستعود لحالِها السابق.

يتَّجهان الى مصطبةٍ فارغة على بعد...

تدفع بكفِّها ليضمَّ كفّه؛ فيشعر تلك اللحظة بدماءٍ حارةٍ تسري إلى ساعدِه، ثم ترتفع إلى عضدِه، فصدرِه..

ثم بشعورٍ غامرٍ تتعالى ضرباتُ قلبِه فيحدس بوصولِ دمائِها

اليـه .. إنَّـه الآن يعـودُ شـاباً بـالقميص ذي المربعـات والبنطلـونِ السموكن والحذاءِ الكتان.. يعود شاباً مَمهوراً بسرورِ الوقت.

إنَّها الحياةُ الطريّة تعود اليه.

تقول لـه: سيكون لقاؤنـا المستقبلي عبر مـا ننشره من مقالاتٍ وما نتداوله من مَعارف.

وبدورِهِ يُخبرُها أنْ سيُكمِل كتابةَ ذكرياتِه معها ليحتويها يوماً ما كتـابٌ ينضـمُّ لعديـدِ مؤلفاتـه التـي أغنـى بهـا المكتبـةَ المعرفيـة، وصـارت بصـمةً تَحكـي سِفرَ ابـداعٍ حـيٍّ لا يَمـوت، لمبـدعٍ ثَـرٍّ لا يُنسى.

اكتوبر، ديسمبر ٢٠١٦

The Night in its Purity

Novel رواية

Zaid Al-Shaheed

تشكِّلُ روايةُ (الليلُ في نقائه) للروائي والشاعر العراقي زيد الشهيد الجزءَ الرابع من رباعية الليل .. فالأولى كانت (الليلُ في نُعمائه) ، وبعدها (الليلُ في عليائه) ، و(الليلُ في بهائه) ... وبهذا تكون الرباعيةُ قَد احتوت سَرداً جرت في فضائه اربع روايات كان المكان (بيت للإيجار) جمع خلجات ، وأفكار ، وأحاديث نسوة اتخذنَ منه مَلاذاً للعيش تحت ضغوط نفسية واجتماعية وسياسية. وكانت السماوةُ مدينةً ضامَّة لهنَّ وإنَّ كُنَّ لَسنَ مِن سكانِها الاصليين.

ISBN 978-9933-628-33-8

سورية -دمشق
00963932472096
00963932002126
ammarkordia@yahoo.com